

فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْأُسْتَاذِيَّةِ

مَنَارَاتٌ مَسْمُوعَةٌ وَمَرْئِيَّةٌ

....

للدكتور محمد جمال صقر

٢٠١٣=١٤٣٤

بِسْمِ اللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وَبِحَمْدِهِ وَصَلَاةً عَلَى

رَسُولِهِ وَسَلَامًا وَرِضْوَانًا

عَلَى صَحَابَتِهِ وَتَابِعِيهِمْ

حَتَّى نَلْقَاهُمْ

صُوَرُ الْمَنَارَاتِ



١ قَبْضَةُ الْيَدِ

لم أحب المدرسة قط؛ فكيف لي أن أتخيل نفسي أستاذا ولا يكونُه أي أحد -وإن كان عالما حبرا جليلا- حتى يكون له تلامذة تتصل أسبابهم بأسبابه، ويرتاحون له، ويحبونه، ويثقون به، وينتصحون بنصحه، ويكملون عمله؛ فيحيا بهم، ويخلد فيهم!

ولكنني كنت دائما بين انعطاف على من يَصْغُرُني وتسليم لمن يكبرني، أنصت لهؤلاء فلا أكاد أنطق، وأهدر

لأولئك فلا أكاد أسكت، فأما أقراني فلم يَدَعْ لي قَرينًا صِغَرُ سني في صفي وكثرة تنقل أسرتي.

ولا أنفرد بكراهة المدرسة، بل أسير على سُنَّةٍ مُتعرِّضة لمن يستن بها، فإن فعل وَجَدَ عليها آخرين من قومه ومن غير قومه، ولكن على مذاهب مختلفة:

فمِنْ كارهي المدرسة مَنِ استسخف بعض نظامها، ومنهم من كره بعض علومها، ومنهم من استثقل بعض واجباتها، وكنت منهم جميعا بسببٍ، أستسخف، وأكره، وأستثقل؛ فلم تَزُلْ عني كراهةُ المدرسة مثلما زالت عن المُفْرَدِي الأسباب، ولا بعدما نزلتُ لها عن أبنائي، بل صرت أجادلهم فيها ويجادلونني حتى أَحبُّوها عَصبيَّةً، ورضيت بذلك من المجادلة تَ◌كْفيرًا خَفيًّا مِنَ التكفير!



٢ سُلَّمُ الابْتِدَائِيّ

في مدرسة شجرة الدر بمدينة بني سويف من صعيد مصر كانت دراستي الابتدائية، أمشي إليها وعنها كل يوم عدا الجمعة من قريب إلى قريب أنا وبعضُ زملائي من الجيران، فنحظى قبل اصْطِفافة الصباح ببعض ألعابنا الخاصة الممنوعة!

مِمّا كنا نقترفه آنئذٍ أن نُحضر بعض أعواد الكبريت وأحدَ مفاتيح الدواليب القديمة المُفَرَّغة وأحد المسامير الممكنة الدخول في فراغه ومَلْئه، ثم بخيط قصير ثخين ينعقد أحد

طرفيه برأس المفتاح والآخر برأس المسمار، نربطهما، ثم نجرد الكبريت في فراغ المفتاح، ونكبسه بالمسمار، ثم نمسك بالسبابة والإبهام الخيطَ من وسط ما بين الطرفين، ونلف الدائرة بين الإصبعين لنضرب جدار المدرسة برأس المسمار فينفجر مثل طلقات الأسلحة!

وهذا من لعبنا مَعشرَ أطفالِ الصعيد في المدرسة قبل اصطفافتها الصباحية؛ فكيف بلعبنا خَالِينَ مُنطَلِقين!

وبعدئذ نصطفُّ، فيقدمني دون زملائي الأستاذ شحاتة، لأقرأ ما تيسر من آي الذكر الحكيم.

وهذا الأستاذ شحاتة مدرس الحساب، نصراني فاضل جدا، كان يُكْبِرُ القرآن الكريم، ويختار لي منه ما أقرؤه كل صباح، ويشرك الطلاب في أعمال كثيرة مفيدة، ويحرص على أن يجتمع طلاب كل فصل وحدهم معه في صورة شمسية تحفظ لهم على آخر عهدهم بالمدرسة ذكرى ما كان بينهم وبينه فيها.

وبذكر الأستاذ شحاتة أذكر الأستاذ محمد عثمان مدرس العربي كما نقول في مصر لمدرس اللغة العربية، وهو اسم إذا أريد به مدرس اللسان العربي كان ألطف من الآخَر.

وما الأستاذ محمد عثمان!

علم وفن وحزم، يملأ السبورة من أطرافها بخطه الجميل، ولا يترك شرحه شاردة ولا واردة، ثم يجمع بين فصلينا عند تطبيق ما شرح على بعض النصوص الخارجية، ويطلب من يقرأ أو يجيب، فلا يجترئ على ذلك غيري ولا يحسنه.

وما أدراك ما الأستاذ محمد عثمان!

أذكره يشرح درس نائب الفاعل، فيرسم رجلين أولهما مُعمَّم ما أشبه عمامته بالضمة والآخر حاسر، ثم يخلع عن المعمم عمامته على الحاسر، فيعجبني ما فعل، فأرسمه بِبَنَانِي على جلد حقيبتي المُتْرِب، فيلمحني، ويأتي إلي ليضربني بمسطرته الكبيرة، فلا يستطيع أن يكف حتى يخرجني من الفصل مَلُومًا مَحْسُورًا.

وهذا من تأديبنا معشرَ أطفال الصعيد في الفصل الدراسي على عيونِ زملائنا ومَنْ شاء أن يطَّلع، فكيف بمعاقبتنا مُذْنِبينَ مُفْرَدِين!



٣ حَرَكَةُ الْإِعْدَادِيِّ

لم أدرس الإنجليزية إلا في الإعدادي، وكانت مدرستي مدرسة الشعب أقرب إلى بيتنا بمدينة بني سويف من مدرسة شجرة الدر الابتدائية، وأهون لدينا، وأكره إلينا.

أُسْنِدَ تَدريسُها لنا إلى رجل غريب الوجه واليد واللسان، لا أذكر من أحواله مع ذلك غير أنه كان يمنعنا من كتابة نطق

الإنجليزية بالعربية فوق الأسطر، وأنه كان شديد العقاب عليها، وأنه لم يعبأ أن نَكْرَهَهُ هو وما يُدَرِّس!

وأُسْنِدَ تَدريس العربية إلى رجل قدير استفدت منه كثيرا. ولا أنسى أنه مَرَّ بنا يوما ونحن نلعب بالطريق كرة القدم، فأمسكنا عن اللعب، وتوقف هو عن السير، وبَشَّ لي، فأسرعتُ إليه أُسلِّمُ عليه فخورا به.

وأُسْنِدَ تدريس الرياضيات إلى شابة قديرة، كانت تَتَّقِينا بعُبوس وشِدّة تُخالِطُهما عصًا غليظة لا يقوم لها شيءٌ إلا أَقْعَدَتْهُ، ولكنها ارتاحت لنا بعدئذ؛ فارتحنا لها سعداء بها.

في مدرسة الشعب هذه ضِعْتُ أنا وزملائي من الجيران بين عصابات القرويين الذين كانوا كأنهم وَطَّنوا أنفسهم من قبل أن يدخلوها على احتقار الحَضَرِيِّين وتأديبهم، فيجيئون زَرافات لا وُحْدانًا ويذهبون ويقعدون ويقومون، حتى ضَيَّقُوا علينا رُحْبَهَا، وأحكموا كُرْهَها.

وحَوَّلَتْنا دواعي المعيشة عن الجنوب إلى الشمال حيث درست الثالث الإعدادي في المدرسة الأهلية بمدينة منوف

من محافظة المنوفية، التي لولا غربتي بين تلامذتها لَفَضَّلْتُها على غيرها بما حظيت فيها من أفاضل المدرسين.

في المدرسة الأهلية انتبه إليَّ الأستاذ إبراهيم مدرس اللغة العربية القدير، واعتنى بأعمالي الصَّفِّيَّة، وأَشْرَكَنِي في الإذاعة المدرسية بنصوص منتقاة من الأدب العربي الرفيع ودَرَّبَنِي على ذلك حتى شاركتُ في مسابقات الإدارة.



٤ شعرُ الثَّانَوِيِّ

ولم أدرس الفرنسية إلا في الثانوي بمدرسة منوف الثانوية العسكرية المهيبة التي كان بعض مسؤوليها من حملة الدكتوراة. وقد عرفت فيما بعد أن بعض مدرسي مدينة منوف من حملة الدكتوراة كان يؤثر عمله بالمرحلة الثانوية على العمل بالمرحلة الجامعية.

وقد أُسْنِدَ تدريسُ الفرنسية في هذه المدرسة الثانوية العسكرية -وَيَا لَلْعَجَبِ العَاجِبِ!- إلى شابة قديرة لم تَحْمِها مقدرتُها من آثار شبابها، فبقيت من العسكر على قلق.

وما زلتُ أذكر مدرسينا الأفاضل فيها جميعا، فلا أدري أيُّهم أفضلُ، غير تقصير مدرس التربية الإسلامية (الدين)، الذي لم يستطع أن يستولي علينا ولا أن ينجو من استهانتنا.

ولم أَكُنْ على ذلك كلِّه أَكْسَلَ ولا أَزْهَدَ في الدراسة وواجباتها مني آنئَذٍ حتى كدت أَرْسُبُ، فقد طرأ على معيشة أسرتي من طوارئ التنقل والإقامة ما أغراني بأعمال أخرى، ولولا إدراك أبي لي -عفا الله عنه في الصالحين!- وارتحالي إليه في مدينة حفر الباطن من شمال المملكة العربية السعودية، لَاستبدَّ بي طريقٌ آخر.

أكملت دراستي بمدرسة حفر الباطن الثانوية حيث انضممت إلى القسم العلمي مدة، ثم حَوَّلَتْني المدرسة رَغْمًا إلى القسم الأدبي، بزيادة درجات مَوادّي الأدبية على درجات مَوادّي العلمية!

ويا بعد ما بين همة العلميين ونشاطهم وقعود الأدبيين وكسلهم، غيرَ فتًى فيهم كان من الهمة والنشاط على فطرة سوية، فكُنّا فيهم أَغْرَب مِنْ عابِدٍ في سُوق!

وكما كان طلاب القسمين كان أساتذتهم غيرَ أستاذَيِ اللغتين العربية والإنجليزية: فأما أستاذ اللغة الإنجليزية فكان مِصريًّا أَسوانيًّا يعرف الفرنسية والروسية ويحظى من فضل اللَّه عليه بمواهب أخرى عجيبة، وأما أستاذ اللغة العربية الأستاذ عبد القادر إسكاف فكان سوريا قديرا حازما يتخيله الطلاب المتمردون فيهابونه حتى إذا رأوه سُقِطَ في أيديهم!

وقد حنا عليَّ أستاذ الإنجليزية حتى آنسني وكرمني، وحننتُ أنا إلى أستاذ العربية وتعلقتُ به، حتى إنه لما غاب ولا يغيب أحدٌ، وعرفت أنه اشتغل بولادة زوجه حتى رُزِقَ بنتًا- جهزتُ في تهنئته هذين البيتين وأنا في الفصل:

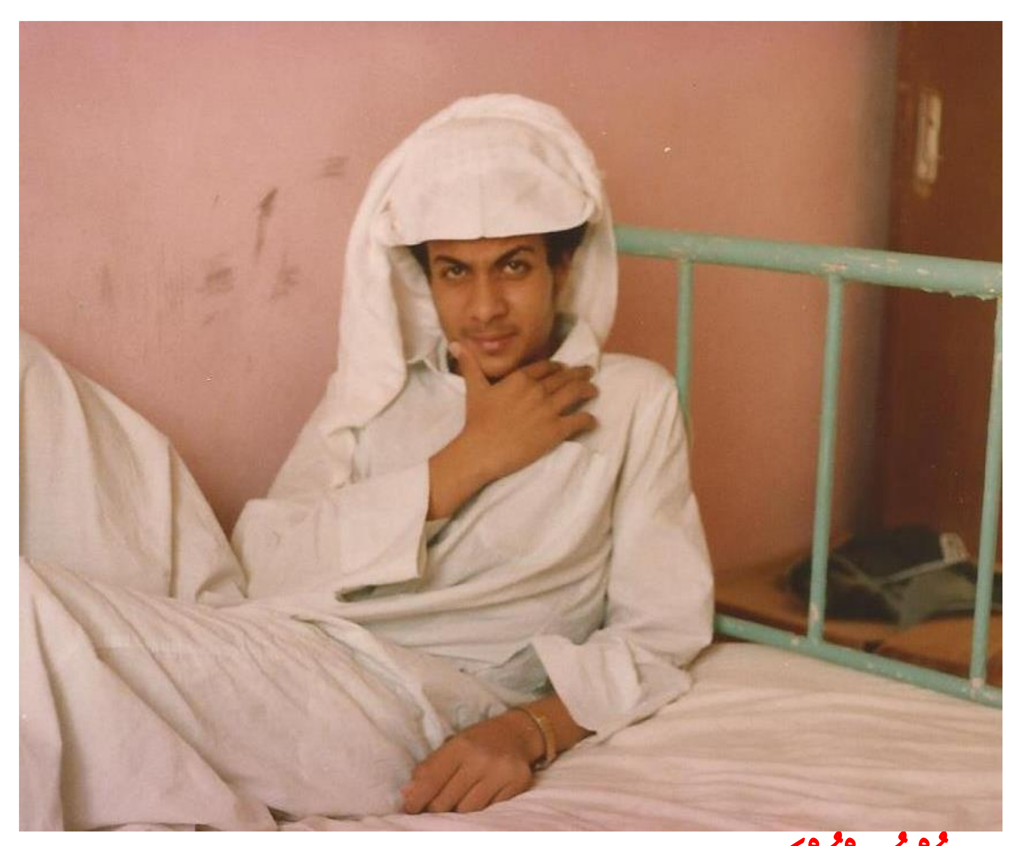
شَرَّفْتِ حَفْرًا يا ابْنَةَ الْأَجْوَادِ

يَا بِنْتَ رَجُلٍ حَازَ عَرْشَ الضَّادِ

فَلْتَفْرَحِي يَا حَفْرُ أَعْظَمَ فَرْحَــةٍ

وَلْتَسْعَدِي بِكَرِيمَةِ الْأَجْدَادِ

ولم أنتبه إلى سذاجتهما ولا إلى انكسار عَجُزِ أولهما إذا نطقت كلمة "رَجُل" بتحريك الجيم، بل فرحت فرحا شديدا، وأسرعت بهما إليه حين حضر، فاستهل بهما الحِصَّة، وأثنى عليهما، حتى ظَنَّ بي الطلابُ مِنَ الشعرِ الظنون!



٥ فُرْنُ الْعُزْلَةِ

حملتني الغربة في حفر الباطن ومدرستها على الائتناس بالواجبات ثم الانقطاع للتحصيل، حتى استقرت لي فيه واستمرت عادةٌ استسهلتُ بها الحفظ من القرآن وتفسيره والفوز ببعض جوائزه ثم الفوز في نتائج الثانوية بمرتبة الامتياز الثانية على المنطقة الوسطى كلها وهي المنطقة المتقدمة على غيرها بحيث يجوز أن تعمم هذه المرتبة على المملكة كلها.

لم تَنْزِلْ درجتي في مصر كثيرا بالمُعَادَلَةِ؛ فأُتِيحَتْ لي الكليات الأدبية كلها، وأغراني أبي -عفا الله عنه في الصالحين!- بأن أتقدم إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، فأكون مع أختي المقبلة على عامها الجامعي الثالث مُحْتَجًّا بقول المصريين في أمثالهم: الصِّيت ولَا الغِنى، ثم سافر.

وكانت لأختي صديقة حميمة بكلية دار العلوم من أهل الشيخ عبد الباسط عبد الصمد -رحمه الله!- اطلعتْ على طَرَفٍ من أَمْري، فَنَصَحَتْ بالتقدم إلى كليتها؛ فأعادتْ عليَّ ذكرى بعض أساتذتي الأفاضل الذين تخرجوا فيها، وإن تَحَرّجتُ فيما سبق من أن أَخُصَّهُمْ بالنسب.

في قائمة الكليات من أوراق التنسيق جعلتُ كلية دار العلوم هي الأولى وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية الثانية، ثم تركت سائر الكليات تتتابع كما تشاء.

رَسَفْتُ في صف طلاب الفرقة الأولى ذي أربعة آلاف الطالب إلى شباك شؤون الطلاب من كلية دار العلوم، فلما بَلَغْتُه، وقدمتُ أوراقي، قَلَّبَتْها الموظفةُ مُسْتَنْكِرَةً عليَّ

الدرجةَ العليا في الدرجات الدنيا، وكانتْ أحقَّ بأن تحتفي بها، ومن قبلُ ما حَذَّرَني صُعوبةَ الكليةِ أَحَدُ زملائي القدامى وبعض من جَرَّبَها من أهلي، وكنتُ أحقَّ بتشجيعهما، فما عَبَأْتُ بهذا التحذير، ولا ذاك الاستنكار.



٦ أَحْبَابُ الدَّارِ

من رآنا في مطلع الفرقة الأولى بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة، لم يدر من أي شيء يحزن ويغضب وينفر ويهرب- حتى إذا ما رآنا في مقطع الفرقة الرابعة، لم يدر من أي شيء يفرح ويرضى ويألف ويبقى!

جَماهيرُ غَفيرةٌ جاهلةٌ مُضطربةٌ شاردةٌ، تَستوعبُها دارُ العلوم مكانًا ومكانةً، فتعلمُها وتُهذبُها وتُؤنسُها وتُؤاخي بينها

وتَطبعُها بطابعها ثم تَتركُها تسعى بها في مناكب الأرض، فتَتعلّقُ الأسماع والأبصار والعقول والقلوب!

وشُغِفتُ بدار العلوم حتى صرت أعجل إلى النوم لأبكر إليها فأطوف على معالمها وأجول في مرافقها وأرتمي في حضنها وأنشق عبير ماضيها في حاضرها من قبل أن يَشوبَه مَنْ لا يميز الخبيثَ من الطيب!

ومكَّنتني دار العلوم من نفسها، فاتصل بيني وبينها سِرٌّ غير مُستترٍ، يفضحه لفظُ اللسانِ المُبينِ، ولَحْظُ العينِ المتأمّلةِ، وحُكْمُ العقلِ المُتطلّعِ، وشَوْقُ القلبِ المُتعلّقِ.

ومن بعض معارض الكتب في دار العلوم وحولها ثم من معرض القاهرة الدولي، كنتُ أشتري على عَيْنِها ما يَتيسَّر لي من كتب اللغة والأدب، لأَنْقَطعَ له غيرَ شهرٍ ما قبل الاختبارات وأيامِها وكانت سنويةً لا فصليةً، فأتدرَّج من أجلها في مدارج الاستيعاب والاقتدار.



٧ آيَةُ الْجَيْشِ

في إجازة عامي الجامعي الأول بدار العلوم اطلعتُ على بعض مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر -رحمه الله، وطيب ثراه!- التي اجتمعت بعد ثلاثين عاما في كتابه "نمط صعب ونمط مخيف"، ثم في إجازة عامي الأخير اطلعتُ على "رسالته في الطريق إلى ثقافتنا"؛ فاتصل لدي طرفا تنظيره وتطبيقه، واعتدل الميزان، ولم يكن بد من أن أجلس إليه.

رأيتُ فيما يرى النائم أنني زرت أستاذنا، ثم كان ما رأيتُ على مثل ما رأيتُ، ولكن بعد عام من تخرجي، قضيته جنديا باللواء المئة والعشرين من سلاح المشاة الميكانيكي بالجيش المصري الميداني الثاني، ودرست في أثنائه لتمهيدية ماجستير قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية، وكنت من قبل تعييني أُعَرِّفُ نفسي بأنني معيد فيه مطمئنا إلى رضا أساتذته وأثر تكريمهم لي بجائزة القسم السنوية ثلاث مرات من الأربع.

وانقطعت بغرفة عمليات قيادة اللواء لمقالين علميين، أحدهما في أدوات الجواب، والآخر في دراسة وردة من دم المتنبي للبردوني دراسة لغوية- وبمسجد اللواء لأوراد من الأصول الثقافية، حتى إذا ما أشرفتُ على اختبارات تمّهيديّة الماجستير عيِّنْتُ معيدًا بقسم النحو والصرف والعروض، ثم تسلمتُ العمل يوم تسلمي شهادة أداء الخدمة العسكرية.

من ميدان سَفِير سَعَيْتُ إلى شارع حسين المرصفي من عن يمين مقهى هناك مُطِلٍّ على الميدان، فإذا بي أمام رقم

ثلاثة على بيت جليل ذي أربعة طوابق أو ثلاثة على شقتين في حديقة مُسَوَّرَة، فدخلت مأخوذا بما لا عهد لي به في البيوت من التنظيم والتأنق، وصعدت إلى الطابق الأعلى بمصعد بدا لي دخيلا على البيت مستحدثا.

خرجتُ من المصعد، فإذا باب نُحِم عليه اسم معرف بأنه قبطان بحري، فتجاوزته إلى الباب الآخر، فإذا اسم أستاذنا مثلما يخطه على كتبه سيد إبراهيم سيد الخطاطين، فضغطت زر الجرس، فسمعت صوته ساذجا قديما، وفتحتْ لي فتاة كريمة الحفاوة كانت زلفى حبة قلب أستاذنا.

دخلتُ إلى المجلس، ولم أعرف أحدا من جُلّاسه غير أنني احتفيت بأحدهم؛ فنبهني على أن أستاذنا في الداخل وسيخرج إلينا بعد قليل وأن هذه اللحية من لوازم آل شاكر، يَدْرَأُ عن نفسه شُبْهَةَ أن أظنه هو أستاذَنا، وكان هو الأستاذ عبد الرحمن شاكر السياسي الكاتب الأديب الخطيب الفذ ابن أخيه الذي سَرَّى عني يومئذ وبعد يومئذ، رحمه الله، وطيب ثراه!

ثم طَلَعَ البدرُ علينا من ثَنِيَّات البيت، جَسيمًا قَسيمًا أَسدًا في براثنه مَهيبًا؛ فوثبتُ له أُحيِّيه، فحيَّاني، وجلس في مقعده المُخْلَى له في صدر المجلس، وجلست عن يمينه أُعرِّفُه أَصْلِي وفَصْلِي وعَمَلِي ومُنْتَمَايَ ومَطْمَحي؛ فاستصغر سني، واستكبر مطمحي، وأَوْمَأَ لي بمثال الأستاذ إبراهيم إلى ما ينبغي أن أُحَصِّله قبل أن أَدَّعِيَ في العلم ما ليس فيه، ورأيتُ أنه أراد الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب كتاب "إحياء النحو"، الذي دعاه طه حسين سيبويه العصر.



٨ غُرْفَةُ الْمُعِيدِينَ

أنى لمن كره المدرسة أن يحسن التدريس -وإن أحسن الحَكْيَ والإلقاء- ولا سيما أن يُلْقَى في يَمِّهِ مكتوفًا بجهله به لجأة بُعَيْدَ تمهيدية الماجستير لَمَّا اختل في العام الجامعي ٨٩/٩٠ بعض أعمال قسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة!

كُلِّفْتُ عندئذ تدريب طلاب الفرقة الثانية على إتقان المقرر عليهم من مسائل علمي الصرف والعروض؛ فعَيِيتُ بأمري، وتوَهَّمْتُ أنني أَفْتِنُهُمْ عن أنفسهم بما أعرض عليهم من نصوص الشعر العربي وأعلق عليها مثلَ تعليقات المَجَالِسِيِّين والأَمالِيِّين التي افتتنتُ بها في أَوَّلِيَّتِي، وهَيْهَاتَ!

ثم كُلِّفْتُ من السنة اللاحقة تدريب طلاب الفرقة الأولى على المقرر عليهم من مسائل علم النحو؛ فلم أجد من مَفَرٍّ من النصوص إلا إليها، فاصطفيتُها من القرآن الكريم والنثر الشريف والشعر النفيس قصيرةً مُؤَثِّرَةً، وانتهجتُ لها منهجًا ثَقَّفْتُهُ فيما بعد وسَمَّيْتُهُ "دَائِرَةَ الِاسْتِيعَاب"، دُرْتُ به أنا والطلاب على النصوص دَوْرات مَحدودةً مَعْدودةً مُخْتَلِفةً مُتَراكِبَةً، أكشف بكل دورةٍ طَبَقَةً من طَبَقَاتِها؛ فارتاحوا لذلك وانتفعوا به.

لقد كُلِّفْتُ هذا التكليف الثاني أربع مرات، فكنتُ في كل مرة لاحقة أستحدث وجها من تأليف قلوب الطلاب بالحرص عليهم والتَّحَبُّب إليهم والعناية بهم. ثم كُلِّفْتُ

التكليف الأول ثلاث مرات أخرى، فانتفعتُ بما حصل لي في التكليف الثاني من توفيق، وانطلقتُ إلى انتهاج منهج قريب من "دائرة الاستيعاب"، جمعتُ فيه على النصوص كذلك بين مسائل علمي الصرف والعروض، ورتبتها ترتيبا يكشف ما بينها من جوامع وفوارق، وحملت الطلاب على كشفها، فدَهِشُوا لذلك، واستمتعوا به.



٩ مَوْطِنُ الْمَحَبَّةِ

اصطفيتُ لنفسي من كتب الأدب كُلَّ ما عرفتُ قيمته، أو قَدَّرْتُها، ووَرَّدْتُ منه أوراد الصباح والمساء؛ فكان منه "مجمع الأمثال" للميداني. وكنتُ قد انتبهت إلى تَذَوُّق التراكيب وأكبرته حتى مَلَكَ علي أمري ولم أعد أَعْبَأُ إلا به وبأصحابه وبطلابه؛ فبَدَا لي أن أضع في تذوق تراكيب الأمثال العربية القديمة رسالتي للماجستير.

وكنت قد أحببت الدكتور أحمد كشك من قبل أن أراه، فلما رأيته ازددت له حبا، وارتحت إليه، وتَرَدَّدْتُ عليه بمسألتي؛ فشجعني عليها، وأعانني حتى قَدَّمْتُ فيها خطة بحث إلى قسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم من جامعة القاهرة بعنوان "الظواهر التركيبية في الأمثال العربية: دراسة نحوية"، فلم يقبلها القسم، وإن وافق على إشراف الدكتور أحمد كشك علي؛ فأصلحتُ منها، وقدَّمتُها من الشهر اللاحق، فقبلها بعد أن غير عنوانها إلى "دور الأمثال العربية في التقعيد النحوي"!

قلت لأستاذي المشرف الدكتور أحمد كشك: ما هذا لمسألتنا بعنوان! قال: سنعمل بها ما نريد، ثم نصب فيه. فلما عملنا ما نريد قلت له: قد اتضح الآن ألَّا وجهَ لبقاء هذا العنوان على عملنا! قال: صدقت. قلت: فماذا؟ قال: نطلب إلى القسم تغيير العنوان.

غيَّرَ القسمُ عنوان رسالتي للماجستير إلى "الأمثال العربية: دراسة تركيبية من خلال مجمع الأمثال للميداني"، على أنه

تسجيل جديد يجب أن أتأخر عنه بالمناقشة ما لا يقل عن سنة، ومَنَّ عليَّ بأنه أراحني من إحضار خطابات جديدة بعدم تسجيل العنوان، وسَخِرَ من أنني تَوَهَّمْتُ أنه يوافق لي بلا قيد، فأناقش من الغد، وسبحانَ مُثَبِّت العقل والقلب!



١٠ مُنَاقَشَةُ الْمَاجِسْتِير

فَتَّشْتُ في تركيب المثل العربي القديم عن طبيعة التفكير والتعبير العربيين، واستعنت على ذلك باستيعاب أبحاث من درسوا التراكيب اللغوية قديما وحديثا وأحوال من تذوقوها وكانت لهم في التحقق بأمرها مَقاماتٌ وأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُها القول والفصل.

وشَدَّ ما أَرَّقَني تقسيم المادة وتصنيفها وترتيب صنوفها وسبر أغوارها وكشف أسرارها حتى التبس عليَّ النهار والليل،

ولم يُنْجِني من ذلك العذاب المطلق إلا عذابُ الكتابة المقيد الذي تَمَخَّضَ عما سبق أن أشرت إليه من تنافر عملي والعنوان المفروض عليه.

لما قضى القسم في تغيير العنوان وتأخير إمكان المناقشة ما قضى، ارتحت كثيرا، وانصرفت إلى تحصيل ما لم أُحَصِّله، ونَبَّهني إخواني على طرف منه.

ومن أطرف ما أذكر من التنبيهات تنبيه أخي الدكتور محمد أشرف مبروك المشد على كتاب للدكتور عبد الفتاح الحموز رآه آنئذ بركن دار الجيل من معرض القاهرة الدولي للكتاب في الحذف من تركيب المثل العربي القديم؛ فقد أسرعنا من وقتنا إليه معا، فإذا صاحب المكتبة يَتَصَدَّرُها ضخمَ البُنْيان قويَّ البَيَان، فطلبناه، فأنكره، فأثبته الدكتور محمد، فأنكره الرجل، فأثبته، فأنكره مُتحديًا بإهدائه نسخة منه إذا عثر عليه، فعثر عليه، وأحضرنا منه نسختين وكان معروضا بتخفيض؛ فنزل له عن نسخته، وحرمني من تخفيض نسختي بما أهدى أخي ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لقد كان هذا الكتاب آخر ما حصلت في هذه السنة المفروضة غنيمةً بحثية باردة؛ إذ كثرت فيه دعاوى صاحبه العريضة واستشكالاتي عليها، واستوت كتابتي هذه الثانية عملًا آخر، ابتهج به أستاذي المشرف الدكتور أحمد كشك، حتى نقل لي عنه الدكتور محمود محمد الطناحي -رحمه اللهُ!- أنه قال: بعد هذه الكتابة لن يستطيع أحد أن يناقشه!

ضُحى السبت ١٩٩٣/٣/٢٧ حضر لمناقشتي من وكالة آداب القاهرة الدكتور محمود فهمي حجازي، ومن الجامعة الإسلامية بالباكستان أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، وتَلَبَّثا قليلا بمكتب وكيل كلية دار العلوم لشؤون التعليم والطلاب أستاذي المشرف الدكتور أحمد كشك، وحضرهم أساتذة آخرون وزملاء.

تَنَحَّيْتُ جانبًا أُصلّي، فإذا الباب ينفتح على مصراعيه، وإذا الجمع ينتفض إليه ويُكِبُّ على يديه؛ فقد دخل منه محمود محمد شاكر أستاذنا أستاذ الدنيا هو وزوجه وابنه وزوج

الدكتور محمود محمد الطناحي، وسبحان من ثَبَّتَنِي على ذلك في موقف الصلاة!



١١ ابْتِسَامَةُ الْمُطْمَئِنِّ

لقد خبأ لي الحق -سبحانه، وتعالى!- في رسالتي للماجستير من ألطافه ما لا يزال يتوالى علي ويريني فضله طَلْقَ المُحَيَّا كفاءَ ما خَدَمْتُها وبَذَلْتُ لها، حتى صرتُ أُصَنَّفُ بها في الأَمْثالِيِّينَ الذين يُحْتَكَمُ إليهم ويعتمد عليهم.

وقد نشرتُها بعد سبع سنوات من مناقشتها بعنوان "الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية"، وتعمدتُ أن أطبعها

بمطبعة المدني التي آثرها بكتبه أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله، وطيب ثراه!- وأن أُثْبِتَ على ظهر الغلاف كَلِمَتَه في الثناء عليَّ وعليها.

وقد زرته من الجمعة اللاحقة، فاحتفى بي قائلا لتلميذه الأستاذ عبد الحميد البسيوني -رحمه الله!- مستشار أمير الكويت: قد عرفت من أين جاءه العلم، جاءه من أبيه، وكان أبي -عفا الله عنه في الصالحين!- قد جَالَسَ أستاذنا في مَحْفِلِ مناقشتي، وكفاه جوابَ بعض أسئلة طلاب العلم المُتَجَمِّعين عليه.

ومِنْ أوائل ما ظَهَرَ لي من خبايا ألطاف الحق -سبحانه!- أنني وأنا المشغول بالشعر عزمتُ على أن أجعل رسالتي للدكتوراة في "عَلَاقَة عَرُوضِ الشِّعْرِ بِبِنَائِه النَّحْوِيِّ"، فتقدَّمتُ عن رضا أستاذي المشرف الدكتور أحمد كشك إلى قسم النحو والصرف والعروض نفسه، بخطة غامضة لم يَتَيَسَّر لي أن أخدمها بما تستحق، فوافق عليها، ثم لقيني الدكتور علي عشري زايد -رحمه الله!- وكان رئيس قسم البلاغة والنقد

والأدب المقارن وعضوا بمجلسي الدراسات العليا والكلية جميعا، فقال لي: موضوعك غامض ولكننا وافقنا عليه ثقة بك، وسبحان مقلب القلوب!



١٢ مِهْرَجَانُ الشِّعْرِ

ادعيت في رسالتي للدكتوراة أن علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي وثيقة جدا، حتى إنها لَتَستمرُّ على تطوير أحد طرفيها؛ إذ يتطور معه طرفها الآخر. وانتهجت في البحث عن حقيقة دعواي منهج الموازنة بين الشعرين القديم والجديد عند المجددين الذين جمعوا بينهما في أشعارهم على تاريخ الأدب العربي كله.

ولما لم يكن أَنْجَحَ في ظواهر التجديد من الشِّعْرَيْنِ الموشح والحر، قصرتُ عليهما بحثي، حتى تَمَيَّزَ لي تسعة شعراء جَمَعَ كلٌّ منهم في شعره بين القديم العمودي والجديد الموشح والحر أحدهما أو كليهما. وجعلت همي بعد أن استخرجت كل مثال مُزدوِج من أشعارهم، أن أقف على أثر تطوير العروض في البناء النحوي وأثر تطوير البناء النحوي في العروض.

وقد خالفت في رسالتي هذه للدكتوراة أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- الذي لم أخالفه من قبل عامدا، وكان كلما كلمتُه في أفكارها أصولا وفروعا وعلامات رآها أوهاما في رأسي أتوهمها، ثم أفضيت فيها من بعد إلى ما لا يُنكِرُهُ من القول بأثر تطور إيقاع الحياة العام فيما يستلهمه الشعراء المجددون من موسيقى وكلام قديمين وجديدين.

سافر عني إلى عمان أستاذي المشرف الدكتور أحمد كشك، وأشرف علي من بعده أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، الذي لم يرتح لعملي ولم يمنعني منه، بل أعانني

على إتمامه، ثم فاجأني بعد مناقشة الرسالة بنسخة من تقريره عنها يُثْني عليَّ فيه بريادة هذا المجال!



١٣ مُنَاقَشَةُ الدُّكْتُورَاةِ

ضحى الأربعاء ١٩٩٦/١١/٦ حضر لمناقشة رسالتي للدكتوراة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة الدكتور السعيد محمد بدوي، وشاركه من كليتنا الدكتور محمد عبد المجيد الطويل، وترك أستاذي المشرف الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف للدكتور السعيد محمد بدوي قلب منصة المناقشة ورئاسة لجنتها ليجلس عن يساره وعن يمينه الدكتور محمد عبد المجيد الطويل.

وقبيل بدء المناقشة تَرَدَّدْتُ بين منافذ الكلية والجامعة أرقب وصول أستاذنا أستاذ الدنيا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- ومعه زوجه والأستاذ عبد الرحمن شاكر السياسي الكاتب الأديب ابن أخيه والأساتذة عايدة الشريف الكاتبة الصحفية والأستاذ عبد الله تلميذه الضابط المتأدب المتفرد، حتى ردتني المناقشة، وشغلتني عن عدم حضوره.

ذُكِرَ للأستاذ مصطفى عبد الله الكاتب الصحفي أن حرس الجامعة منع أستاذنا من دخولها، فاختطفها ليضرب بها الطبل بما نشر في أخبار الأدب من أن جامعة القاهرة تَرُدُّ على أستاذنا سنة ١٩٩٦ صفعته القديمة لها سنة ١٩٢٧ حين احتقرها فعاف الدراسة بقسم اللغة العربية من كلية آدابها، ولم يكن غير أنه نُصِحَ بالرجوع خوفًا عليه من مظاهرات الطلاب، فانتصح، ثم تبين من بعد أن لم يكن ينبغي له أن يرجع. وكتب الأستاذ عبد الرحمن شاكر في ذلك إلى الأستاذ جمال الغيطاني رئيس تحرير أخبار الأدب.

حضر المناقشة شَعْبٌ من الأساتذة والزملاء والتلامذة والأهل والضيوف ضاق عنهم المكان -وإنْ حَوَاهُمْ صَدْري- وبَرِمَتْ بصَخَبِ تلامذتي لجنة المناقشة، حتى كان الدكتور السعيد محمد بدوي يَتَوَسَّلُ إليهم بمحبتي أن يهدؤوا، ولو شَهِدَنَا أول اشتغالي بالتدريس لَتَوَسَّلَ إليهم بقِلَّة حيلتي أَلَّا يعْرِضوا عني، وسُبحان مُفرِّج الكروب!



١٤ حِمْلُ الْأُسْرَةِ

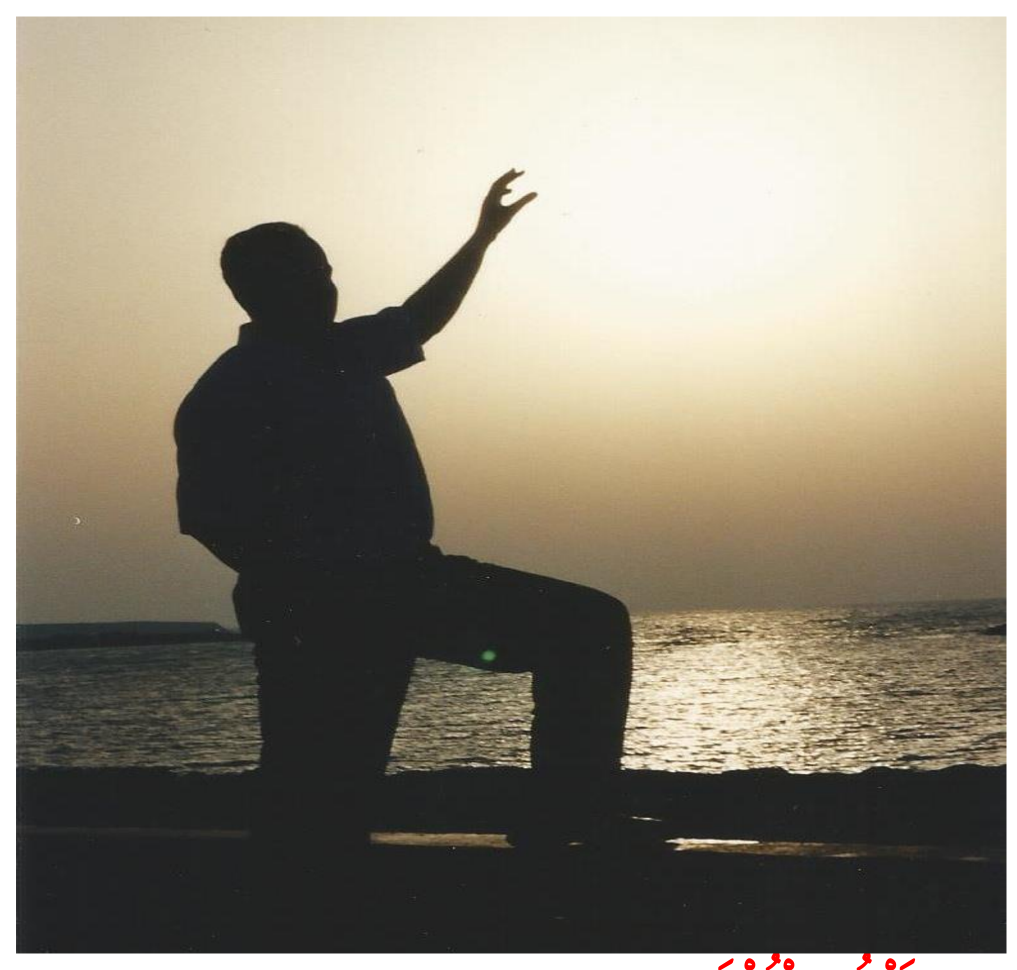
لم يكن أَمْتَعَ لديّ استماعا وتحدثا وقراءة وكتابة، مما قمت فيه بين تمهيدية الماجستير والدكتوراة، من مقامات الفن والعلم، تَفَنُّنًا وتَفْنِينًا وتَعَلُّمًا وتَعْلِيمًا- ولا أَصْرَفَ لي منها عن التَّطَلُّع إلى غيرها، حتى شغلتني بعُمَانَ الشواغل؛ فتطلعت إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس.

وعلى رغم أنني لم أكن استوفيت أكثر ما طلبته الجامعة من شروط تقليدية، قَدَّمَتْنِي على غيري، ثم قبلتني دونهم؛

فسافرت إليها بأسرتي ليلة الثلاثاء ١٩/٨/١٩٩٧، لأجد رجالها في استقبالي، يَتَحَبَّبونَ إليَّ وإلى أسرتي، ويُسَهِّلون علينا، وقبلهم أو معهم كان أخي الدكتور صلاح سلطان هو وابنه الأكبر محمد -آنس الله وحشتهما، وآمن روعتهما، وعَجَّل فرجهما!- يُسرع في خدمتنا، ويقوم على استقرارنا، ويتحبب إلينا، ويجمعنا بِخيرة زملائنا.

ما كان أغرب المناخ العماني عنا وأشده علينا؛ فمنذ انفتح باب الطائرة لنا اغْتَرَقَتْنا رُطوبتُه حتى كأننا في حَمَّام بُخار، ثم وجدنا الشمس غالبة بنورها ونارها على بيوت مسقط المسكينة البيضاء المفردة الطوابق، تَتَلَعَّبُ بها كيف تشاء!

تَخَصَّصَ لنا وَحْدَنا أَحَدُ هذه البيوت، فلما دخلناه واطلعنا على فراهة سعته وفخامة نظامه، قالت ريم ابنتي ذات خمس السنوات والنصف: أَنَا عَايْزَة اتْجَوِّزْ فِي الْبِيتْ دَهْ! فأمّا براء ابني ذو ثلاث السنوات والنصف، فلم نكد نرتاح من وَعْثاء السفر حتى قال: يَاللَّا بَقَى نْرَوَّحْ!



١٥ شَمْسُ الْمُسْتَحِيلِ

لم أكن حاضرتُ طلاب الجامعة من قبل محاضراتٍ تعليميةً عامة؛ فاشتدَّ عليَّ عاميَ الجامعيُّ الأول بقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس؛ فصَمَدْتُ

له، واجتهدت فيه، ثم كان ما بعده أخفَّ عليَّ، ولكنَّني أيقنتُ بحكمة اشتراط الخبرة عند التوظيف.

لم تكن الجامعة تقبل إلا صفوة الطلاب، ثم كان من أوائل من كُلِّفْتُ تعليمهم خِرِّيجونَ (طلاب السنة الأخيرة على جهة التفاؤل)؛ فائتلفنا أنا وكثير منهم، حتى عرفوا أنهم أول مَنْ أُحاضر؛ فتَمَثَّلَ بعضُهم عندئذ بمثلهم العماني الساخر: "يِتْعَلَّمِ الْحِسَانَة (الحِلاقة) فْ رُوسْ (في رُؤوس) مَجَانين"!

ولكنَّني كنتُ أُقَدِّرهم دائمًا أعظمَ تقدير، وأستحدثُ لهم من أساليب التعليم كلَّ ما يُمَكِّنُني من نقل ما لديَّ إليهم موهبةً وثقافةً وإبداعًا على كثرة ما دَرَّسْتُ من علوم واختلافه.

أمّا في تَدريس علمي الصرف والنحو فكنتُ أتأمل الباب من كل منهما في كتبه، وأحدد أفكاره، وأصطفي منها ما أصنفه، وأُمثِّله بأمثلة مأثورة أو مبتدعة، أَتحرَّى فيها كلِّها أن تشتمل على لَطائف ثقافية أُسَرِّبُ منها إليهم كُلَّ ما أُحِبُّ. ثم أُوجزُ الباب بعبارة مُحْكَمَةٍ. وأُشْرِكُهُمْ في عملي كله،

ثم أُلْزِمُهُمْ أن يُجَهِّزوا همُ البابَ تَجهيزَ مَنْ سيُدَرِّسه مثلَما دَرَّستُه من غير تقليد، غيرَ متُحرِّجٍ من جمع كراريسهم، وكأَنْ لم يَبَرحوا مدارسهم الأولية، ثم أُكلّفهم أن يبحثوا في الكلام العربي عن طبيعة وجود هذا الباب فيه، حتى إذا اختبرتُهم كتبتُ لهم مَوادَّ مُعجمية مُقَطَّعةً غُفْلًا، وسألتُهم أن يصوغوا منها ما يُمَثِّلونَ به بعضَ ما تَعَلَّموا من أفكار الأبواب.

وأمّا في تَدْريس علم العروض فكنتُ أُمَثِّل لهم عمل الشاعر والعَروضي كليهما، فأُقدِّم مُقدّمة من الأسئلة، أَتأتَّى بها إلى ما أطمح بهم إليه. ثم أُرَتِّب بحورَ الشعر بحيث يتقدَّم كلَّ بَحْرَيْنِ مُفْرَدين مُتَقاربَيْنِ، لِيَتْبَعَهما البحرُ المُرَكَّب منهما، بقصيدة واحدة في أَهَمِّ صورِ كلِّ بَحْرٍ، أَستمتعُ بالتعليق عليها، وأُقطِّعُ كلَّ بيت منها تقطيعًا، وأُوقِّعُه توقيعًا، وأُفَعِّلُه تَفعيلًا، وأُصَنِّف تَفعيلاته تَوْصيفًا. ثم أُكُرُّ بالقوافي على الأوزان، فأُحدِّدها هي وأجزاءَها وأنواعَها وألقابَها. ثم أُوجِزُ تَخْريجَ القصيدة في علم العروض بعبارة مُحْكَمَة. وأُشْرِكُهُم في عَمَلي كلِّه، ثم أُلْزِمُهم أن يُجهِّزوا لكل قصيدةٍ قصيدةً مثلَها تَجْهيزَ مَنْ

سيُدَرِّسها مثلَما درَّستها من غير تقليد، غيرَ مُتحرِّج من جمع كراريسهم كذلك، وكأن لم يبرحوا مدارسهم الأولية. ثم أُكلِّفهم أن يبحثوا في أحد دواوين الشعر العربي عن طبيعة وجود العروض فيه كله، حتى إذا اختبرتُهم كتبتُ لهم أبياتًا مصبوبة صَبًّا من غير شَكْلٍ ولا تَقْسِيمٍ، وسألتُهم أن يُخَرِّجوا أوزانها بالتقطيع والتوقيع والتفعيل والتوصيف، وقوافيها بالماهية والأجزاء والأنواع والألقاب.



١٦ جَمَاعَةُ الْخَلِيلِ

كُلِّفْتُ بقسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس في أثناء ستة الأعوام الجامعية التي قضيتُها فيه آنئذ من ١٩٩٨/٩٧ إلى ٢٠٠٣/٢، تدريس مقررات أخرى طريفة، من مثل اللغة العربية العامة، ومهارات اللغة العربية للمتخصصين وغير المتخصصين، والنحو الوظيفي، والاستشراق والمستشرقين. فحرصت على أن أَصْطَنِعَ لكلٍّ منها مادةً وافيةً ومنهجًا طريفًا

وأسلوبًا جذابًا، تعلمت بها كما علمت. ثم ضَمَّنْتُ بعض ذلك فيما بعد مقالاتي، منها مقالي "رعاية النحو العربي لعروبة أطوار اللغة والتفكير"- وكتبي، منها كتابي "مهارة الكتابة العربية"، على رغم مَنِ استنكر عليَّ من زملائي أن تَشتطَّ بي إلى هذا المدى البعيد عنايتي بتلامذتي.

وكُلِّفْتُ الإشراف على "جماعة الخليل" الأدبية، مضمار النشاط الأدبي الجامعي الوحيد آنئذ؛ فشاركتُ الطلاب بأعمالي، واطلعتُ على أعمالهم، وعلَّقت عليها، ودربَّتُهم، وحاضرتُهم، وتَمَسَّكتُ في محاضراتي بأن أُقَدِّمَهم بين يَدَيْ عَمَلِي لِيلْقُوا على الحاضرين ما يخص المحاضرة من أعمالهم أو أعمال غيرهم. وقد سَجَّلَتِ الجامعة ذلك كله لِيُتاحَ لِمَنْ شاء الاطلاع عليه، وأُتِيح للإذاعة حتى قابلتُ فيما بعدُ من زملائي مَنْ زَعَمَ أنه كان يستمع إليه كل مساء. ثم ضَمَّنْتُ بعض ذلك فيما بعدُ مقالاتي، منها مقالي "شعر الشباب دم العقل ووجه الجنون"، ومقالي "ترجمة رملية لأعراس الغبار للبردوني قراءة أخرى"، ومقالي "منازل الشمس في شعر أمل

دنقل نمط من تأويل الأحاديث أفضل"- وكتبي، منها كتابي "نجاة من النثر الفني" بجزأيه.

واخْتِرْتُ في أثناء ذلك لمهرجان الشعر العماني حَكَمًا ثم باحثا، فكان مجتمعا فريدا ائتلفت فيه أنا والمشتغلون بالشعر على وجه العموم من العمانيين ومن غيرهم، واختلفنا، ومشينا في مناكب عمان. ثم تكاثرتْ علي الدعوات إلى المشاركة في أنشطة لغوية وأدبية خارج الجامعة كما تكاثرت داخلها من غير أن يَتَجَلَّى ما استقر لي في قلوب العمانيين من مَوَدَّةٍ وتقْدِيرٍ كبيرين، حتى استقلتُ ورحلتُ، فتوالَتْ عليَّ آثارُهما مِنْ كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ!



١٧ كُتُبُ السَّفَرِ

ما أكثرَ ما زرتُ من مكتبات عامة وخاصة، وما أقلَّ ما استفدتُ منها! فلم يكن يقَرُّ لي بأيٍّ منها قرارٌ إلا مضطرا، حتى أفرغ من تحصيل ما لم أحصل عليه من مكتبتي.

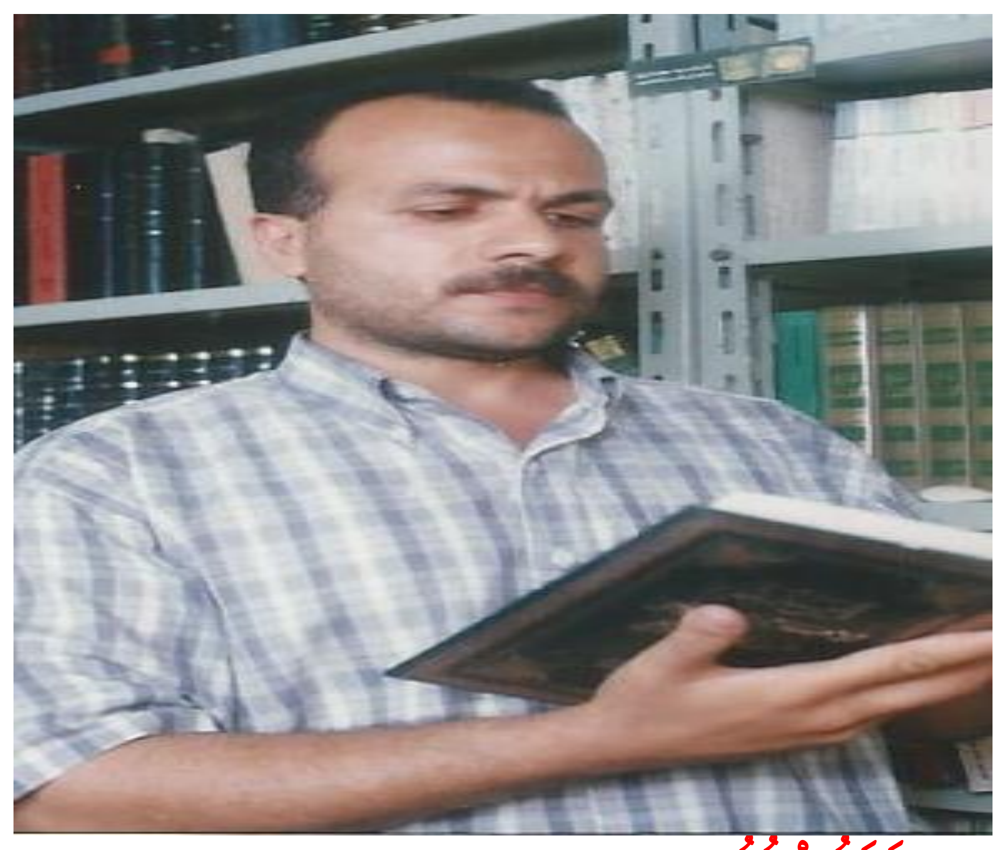
لقد جريتُ على شراء ما أحتاج إليه من كتب أو استعارته، لأنقطع له بمكتبتي، فأعاشره معاشرة الصديق الحميم، أَبُثُّه كما يبثني، وأَدُلُّه كما يَدُلُّني، فأَنْفَعُه كما ينفعُني، ولا يكونُ له عليَّ مِنْ فضلٍ إلا مثلما يكون لي.

وعلى رغم حِرْصِي على شِراء الكتب طَوالَ العام من مكتباتها المعروفة، كنتُ أَحْرَصَ على شرائها من معارضها الدولية السنوية؛ إِذْ تحتشد حشودُها، وتَشتبِهُ أمورُها، وتعتركُ أَقدارُها، فتَتَخاطَفُني حيث سِرْتُ.

ولكنَّني وقفتُ مِنْ مكتبة جامعة السلطان قابوس دونَ غيرِها كلَّ يوم، على مِثْلِ ما وقفتُ كلَّ سنة من معارض الكتب الدولية، خزانة مُشْرَعة المَمَرّات تَحْتَشِدُ فيها دائمًا الكتبُ المختلفة وتَشْتَبِه وتَعْتَرِك مثلما تفعل بمعارضها الدولية السنوية؛ فتتخاطفني كذلك حيث سِرْتُ، وما من تجارة، بل إعارةٍ يجوز لي فيها أن أستعير عشرةَ كتبٍ لشهرين كاملين، وأن أضاعفهما حتى أفرغ منها على ما أحب.

لم أذهب إلى هذه المكتبة في كتب قَطُّ إلا أُبْتُ بغيرها معها أو دونها، حتى قرأتُ ما لم يخطر لي ببال قريبا كان أو غريبا، وخفيفا أو ثقيلا. وانتفعتُ بصبري على ذلك كُلَّما خَفَّت التكاليف وسافرت عني أسرتي، حتى رُبَّما مَكَثْتُ له ببيتي أُسبوعًا لا أَخْرُجُ منه إلا إلى الصلاة!

ولولا ذلك لم يتيسر لي في صيف العام الجامعي الأول أن أخرج مقالي "التوافق أحد مظاهر علاقة علم العروض بعلم الصرف"، الذي حَظِيَ عند أساتذتي وزملائي وتلامذتي، ولم أزل ألجأ إليه كلما حَزَبَتْنِي دراساتٌ عليا.



١٨ سَفَرُ الْكُتُبِ

لم يكن أُخْلِصَ لي من العُطَل الصيفيَّة بعد سفر الأسرة عني واكتفاء الجامعة مني، غير عطلة عام ألفين الميلادي التي أبت فيها إلى مصر وشغلتني مشاغلها.

ولكنني في غمرة هذه المشاغل أقدمت على نشر أربعة كتب في وقت واحد معا: رسالتيّ للماجستير والدكتوراة كما هما من غير تغيير يذكر، والجزء الأول من سلسلتِي "نجاة من النثر

الفني"، التي تشتمل على ما سوى قصائدي وأبحاثي، ومجموعتي الشعرية الثانية "براء"، المشتملة على ما كان لي من قصائد بين عامي ٩٤ و٢٠٠٠، مما قبل عمان وفيها. ولم أكن نشرتُ قبلئذ غيرَ مجموعتي الشعرية الأولى "لبنى"، التي اشتملت على ما كان لي من قصائد بين عامي ٨٨ و٩٣، وألْبَسَتْ على الناس ما بيْنِي وبيْنَ قيْسٍ!

حرصت على أن أطبع الكتب الأربعة كلها بمطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر على غلاء أسعارها تَنَسُّمًا لذكرى أستاذنا أستاذ الدنيا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- الذي آثرها بكتبه، ولم أبال بثمن الشقة الذي أنفقته فيها، ولا بما لقيت له من سخرية بعض أساتذتي وزملائي الذين لا يعرفون هذه الحال التي قمت فيها، وكنت أكتفي بأن أقول لهم: لولا هذه الكتب ما حصلت على هذا المال؛ فكيف أبخل عليها بما هي سببه!

لقد وَقَفْتُ عليها آنئذ نفسي ومالي، وأَخَّرْتُ لها عودتي إلى عمان، وكَثُرَتْ في تأخري الأقاويل غيرَ القول بمشغلتها،

حتى عدت، فدعوت زملائي إلى بيتي، ثم طلعتُ عليهم فجأة بهداياهم المصرية، نسخ الكتب الأربعة!



١٩ مَسُّ الْحَاسُوبِ

افتُتِنْتُ منذ احترفت الكتابة بالأوراق الكثيبة المهملة ولاسيَّما مُخلَّفات المراسلات والكنترولات، أَنْصُفُ الورقةَ نصفين؛ فإذا أردتُها لنقل الأفكار نَصَفْتُها بالعَرْض، وإذا أردتُها لإبداع الأفكار نَصَفْتُها بالطول، حتى إذا ما فرغتُ أعدتُ الكتابةَ على أوراق بهيجةٍ مُعْمَلَةٍ؛ فكأنما أخرجتُها من

الظلمات إلى النور، فتَجَلَّتْ مثلما يولد يحيى لزكريا -عليهما السلام!- بعد تَطاوُل انتظار وتَحَرُّق اشتياق!

ولم أعرف الحاسوب إلا حين طبعت رسالتي للدكتوراة ٩٦/٩٥، فأما رسالتي للماجستير ٩٣/٩٢ فكانت في زمان آلة الشريط المحبّر، رحمها الله، وطيب ثراها! ثم تزايدتْ بالحاسوب معرفتي قليلا قليلا، ولا سيما بعدما عملت بجامعة السلطان قابوس؛ إِذْ تَخَصَّصَ لمكتبي حاسوب كامل الحاسوبية.

ثم لمّا سكنتُ في مساكن جامعة السلطان قابوس المَبْنيَّة على أَلَّا يعمل فيها الأستاذُ الجامعي شيئا غير أن يرتاح بعد يومه الجامعي الإنجليزي الطويل، هربتُ إلى مكتبي، وتَأَلَّفتهُ، ثم لزمتُه حتى كدتُ أُقيمُ فيه ليل نهار، ولم يخل الحاسوب من تألفي ذاك ولا من لزومي.

لقد كنت أقرأ وأسمع عمن يكتبون أعمالهم الفنية والعلمية من أصلها على الآلة القديمة ثم على الحاسوب الحديث؛ فلا أُخْرِجُ أخبارهم من أساطير الأولين؛ إذ كيف

يُفَصِّلون أفكارَهم ويُمثِّلونها ويُوصِّلُونها دون أوراق كئيبة مهملة! ثم ضَرَبَ الدهرُ ضَرَبانَه، فإذا بي في زُمْرَتِهِمْ أُفَصِّلُ بالحاسوب الأفكارَ كلَّها فَنِّيَّها وعِلْمِيَّها كما أفعل الآن، وأُمَثِّلُها، وأُوَصِّلُها، وسبحان العليم الحكيم!



٢٠ لَوْعَةُ الْوَدَاعِ

ومن عرف الحاسوب عرف الإنترنت شبكة الحواسيب العالمية الجبارة، التي إذا انشبك بها أسلمه بعضها إلى بعض، ولم ينج منها ولا بالطبل البلدي! وقد عرفت الحاسوب، وانشبكت بالإنترنت، ولم ينفعني الطبل البلدي!

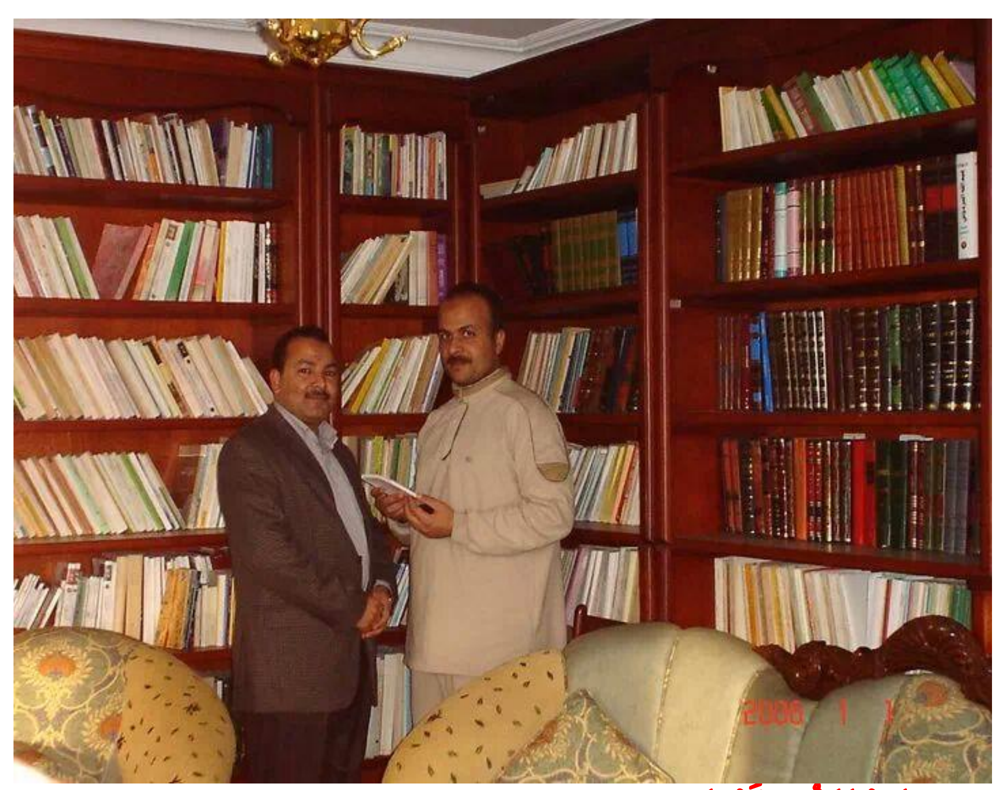
أظن أنني عرفت موقع ردادي السعودي أول ما عرفت من مواقع المواقع التي تيسر الوصول إلى كل شيء، ثم عرفت موقع مجلة أفق الإلكترونية التي ظننت أنها كويتية

تصدر خارج الكويت، وراسلتها بمقالات كثيرة ونصوص، فنشرتها، بل أقامت على بعضها جانبا من مكتبتها. ثم عرفت من خلالها وشك انطلاق موقع رابطة أدباء الشام من لندن، ثم اتحاد كتاب الإنترنت العرب من الأردن على ما أظن؛ فشاركت عضوا في انطلاقتهما الأولى. ثم عرفت موقع الوراق الصادر بدولة الإمارات العربية عن وزارة ثقافتها، وراسلته بستة مقالات، فنشرها من مكتبته الضخمة فيما سماه المكتبة التراثية. وانفتحت لي أبواب الإنترنت على مصاريعها، فدخلت ولم أخرج!

وساعدني بعض نجباء تلامذتي العمانيين على تخصيص بريد إلكتروني هوتميلي بشركة ميكروسوفت التي كانت وما زالت حريصة أكثر من غيرها على إعمال اللغة العربية واكتساب معاملة الشعوب العربية؛ فلم أكد أفك طلاسم هذا البريد، حتى استغنيت به عن المراسلات الورقية تماما، وإن مررت قبلئذ بمرحلة كنت أكتب الرسالة فيها بالحاسوب وأطبعها على ورق بنفسجي أنيق خاص، ثم أرسلها بالبريد

الأرضي. ولا بأس بهذا التعبير ما دام البريد الإلكتروني أثيريا سماويا!

وانتفعت بمعرفة الحاسوب والإنترنت في إدارة أمانة القسم، حتى أثنى عليَّ رئيسه بأنني أَسْرَعُ من تعلم الكمبيوتر؛ فلم ألبث أن انطويتُ في أثيره، واستقلتُ فجأة من عملي أستاذا مساعدا بقسم اللغة العربية وآدابها من جامعة السلطان قابوس!



٢١ مَكْتَبَةُ الرَّوْضَةِ

لم ألبث بعدما تسلمت عملي مدرسا بقسم النحو والصرف والعروض من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، أن كُلِّفْتُ تدريسَ بحور الشعر المركبة لطلاب الفرقة الثالثة ٢٠٠٣-٢٠٠٤، فجريتُ لهم في كل بحر منها على الجمع بين الأشعار العمودي والموشح والحر في أمثلة أُمْلِيها عليهم من قصائدها الفاخرة وأُقْرِئُهم إياها وأُحَلِّلها غيرَ عابئ بجمعها في كتاب؛ فلم

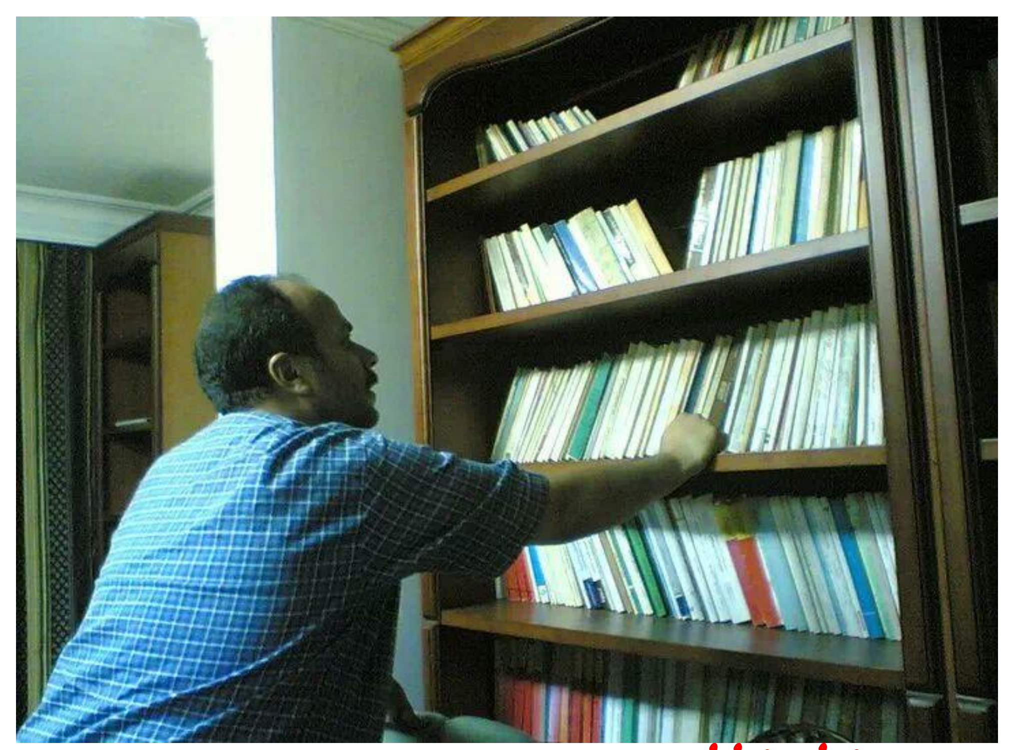
يرتاحوا لذلك، وشكوني إلى إدارة الكلية، فاضطرَّتْنِي إلى استبعاد الشعرين الموشح والحر، ووَقَفَتْني على وزن الشعر العمودي!

وفي أثناء ذلك تداويتُ بتجهيز طرف من أعمالي للترقي إلى درجة أستاذ مساعد، كانت منها مقالاتي هذه الستة: "التوافق أحد مظاهر علاقة علم العروض بعلم الصرف"، و"رعاية النحو العربي لعروبة أطوار اللغة والتفكير"، و"هلهلة الشعر العربي القديم: جزالة أو ركاكة"، و"القافية الموحدة المقيدة وكلمتها في الشعر العماني"، و"المنظومات النحوية العمانية بين المنظومات النحوية العربية: تاريخ ونقد"، و"تفجير عروض الشعر العربي أحد أعمال تفجير نظامه". فلم يُقبَلْ منها غيرُ أولها، وطولِبْتُ بثلاثة مقالات جديدة جيدة.

ولقد زارني بعض زملائي يُعَزُّونني في مصابي، واطَّلَعوا على ما رُفِضَ من أعمالي، وظن أحدُهم أنه يريحني بقوله: لقد رَسَبَتْ لجنةُ الترقية التي رفضت مثل هذه الأعمال! فذكرتُ له

أنني أنتهج فيما أختار وأعالج وأنقد ما لا يلزم اللجنةَ قبولُه، بل ينبغي لي أن أنتفع بموقفها منه.

ثم دعوتُ بعض أساتذتي وزملائي وتلامذتي إلى عشاء فاخر بفندق سميراميس على نيل القاهرة الخالد احتفالًا برُسوبي. ثم دعوتُهم مرةً أخرى إلى عشاء أفخر منه بيتي الجديد في حي منيل الروضة الكريم؛ فلم يملِكْ بعضُهم نفسَه أن قال لي: كيف أردتَ الجمع بين الحسنيين! وسبحان علام العيوب!



٢٢ حِضْنُ الْكُتُبِ

انفتحتْ لي بإخفاقي في الترقي إلى درجة أستاذ مساعد، أبوابٌ أخرى من التوفيق، وهي عادة تعودتُ عليها من رب العالمين الرحمن الرحيم -سبحانه، وتعالى!- ما بقيتُ أحسن به الظن وبعبده.

ارتحتُ إلى إعادة قراءة رسالة أستاذنا أستاذ الدنيا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- "في الطريق إلى ثقافتنا"، ومقالاته "نمط صعب ونمط مخيف"، و"أباطيل وأسمار". واقتبستُ من

عزمه فيها ما نشطتُ به إلى مباراته بمقالي "بين الأعشى وجرير: موازنة نصية نحوية"، الذي قدمتُه للنشر بمجلة كليتنا، وكان على رئاسة تحريرها الأستاذ الدكتور شعبان صلاح، أطال الله في النعمة بقاءه!

بعد مدة مديدة نُشِرَ مقالي، وطلبني في شأنه الدكتور شعبان ليطلعني على أن الأستاذين اللَّذَيْنِ أُحِيلَ عليهما اختلفا فيه بين رافع له إلى أعلى عليين وخافض له إلى أسفل سافلين؛ فأحاله على أستاذ آخر أعلى منهما كعبا، فرفعه مع الأول إلى أعلى عليين، وكتب فيه تقريرا عظيما سلمه له وهو يسأله في المقال: أهو لسعد مصلوح؟ قال الدكتور شعبان: فأحببتُ أن أسرك بذلك، وأخفيتُ اسم الأستاذ، وصورتُ لك تقريره.

ولما قرأت التقرير عرفت توفيق رب العالمين الرحمن الرحيم -سبحانه، وتعالى!- وتَبَيَّنَ لي -وَهُوَ ما أَكَّدَهُ الدكتور شعبان صلاح فيما بعد- أنه لأستاذنا الدكتور محمد فتوح أحمد أحد أساتذة دار العلوم الستة الكاملي الأستاذية كما قال هو نفسه مرة عن نفسه، تحدثا بنعمة الله عليه!

ولقد انفسح لي بهذا المقال موضعٌ بين اللغويين النصيين المعاصرين، وغَرِيتُ بأن أُكْمِلَ سلسلته المنظومة بتشبيه أبي عمرو بن العلاء لجرير بالأعشى والفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة.



٢٣ كُلِّيَّةُ الْإِعْلَامِ

عام ٢٠٠٤-٢٠٠٥ الجامعي -وكنت قريب الأَوْبة من رحلة عملي الأولى بقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس- رغب إليّ أستاذي الدكتور أحمد كشك -عافاه الله أبدا، وأحسن إليه!- أن أعينه على تدريس اللغة العربية لطلاب كلية الإعلام، مُتحرِّجًا من أنهم القلة المتخلفة المستضعفة، فأجبته عاجلا حَفيًّا.

تجهزتُ بما تعودت، ثم مشيت عن يسار كليتنا (دار العلوم)، إليهم في مقرهم الجديد اللطيف، حتى تمكنت في مجلسي

من مدرج حقيقي لا كمدرجاتنا الخيالية، فلم أكد أهدر بعربيتي القرآنية الدرعمية المربَّبة المكرَّمة، حتى "جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ"، كأن لم أقل أو أكن شيئا مذكورا، وإذا هم أشتات من أرجاء الأرض، قد اختلط فتيانهم وفتياتهم، وتعاهدوا على العبث!

يَا مَا أَثْقَلَ وَحْشَتِي بَيْنَهُمْ عِنْدَئِذٍ وَأَسْوَأَ تَجَلِّي!

ولكن لا بأس، لا بأس ولا يأس؛ فكما ذهبت عنهم مقهورا محسورا أُبْتُ إليهم بما لم يكادوا ينسلكون فيه حتى انسلّت فَتَيَاتُهم من فتيانهن فتقدَّمن مبتهجاتٍ إلى حيث اصطففن أمامي!

نعم؛ فقد ألغيت عنهم كل ما سبق إليهم مني ومن غيري، وجعلت همي مسرحية الصفقة لتوفيق الحكيم، هي الكتاب المقرر، وهي المحاضرة المشهودة، يتناوبون على قراءتها طالبا طالبا، وأنبههم على مواضع توفيق الحكيم -!- إلى دعواه فيها وأدلة إخفاقه، ليكون الاختبارُ طائفةً من عباراتها: أسألهم تمييز ما وُفق فيه مما أخفق صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا، فإن وُفق لم يزيدوا على حكمهم بالتوفيق، وإذا أَخفق حددوا موضع الإخفاق وسببه؛ فلم تكن لِتَفَلُّتِهِمْ مسألةٌ تعنيهم من مسائل فنون العربية وعلومها!

ولم يكن هؤلاء الطلاب وحدهم هم الذين ارتاحوا لهذا المنهج في التدريس والاختبار حتى ارتاح بارتياحهم أهلُوهم، بل كذلك كانت إدارة كليتهم في عمادة الدكتورة ماجي الحلواني ووكالة الدكتور سامي الشريف -ولم تكن الاختبارت لتجوز إلا من بابهم- ثم إدارة جامعة قطر التي قُدِّر لي في بعض اللقاءات أن أعرض عليها مسيرة هذه التجربة؛ فشهدت لي عندئذ بفَذاذتها.

إن توفيق الحكيم الذي ألف مسرحية محمد -صلى الله عليه، وسلم!- مما قاله على الحقيقة هو وصحابته -رضي الله عنهم!- ألف مسرحية الصفقة مما سماه اللغة الثالثة التي تستوي في كتابتها الفصحى والعامية، بحيث إذا أرادها فصحى المخرجُ والممثلون الفصحويّون طاوعتهم على مرادهم، وإذا أرادها عاميةً المخرجُ والممثلون العاميّون طاوعتهم أيضا على مرادهم، وزعم أنه بذلك قد حل مشكلة الفصحى والعامية التي كانت عندئذ فتنة الأدباء ولاسيما المسرحيون، و"زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ"، ذهبت دعواه، ولكن صفقته بقيت لأربح أنا فيها منذ خمسة عشر عاما واليوم، طلاب كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وغيرهم!



٢٤ مَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ

كنتُ قد دعوتُ تلامذتي بمجموعات التدريب الصغيرة الخاصة إلى التبكير حتى أطرح عليهم قبل المحاضرة مادة كتابي "مهارة الكتابة العربية"، فكانوا ربما جاؤوا ومعهم غيرهم، فأقرئهم، وأعلق لهم بما لا يجدونه فيما يتاح لهم من محاضرات وكتب مقررة وغير مقررة.

ولم يَلْبَثْ بعضُ نجبائهم أن رَغِبَ إليَّ أن أجلس لهم مجلسا مطلقا من كل قيد إلا ما يقتضيه طلب الفن والعلم

العربيين، واحتالوا له حتى أَنْفَذُوه من مَنْفَذ أنشطة الأسر الرسمية ليستقر له مكان وزمان ثابتان، وسميته لهم "مَقَام الْإِنْصَات نَافِذَة عَلَى بَحْرِ التُّرَاثِ الْمُحِيط".

استفتحت بدلائل الجرجاني، على أن تكون بين يَدَيْ كلِّ حاضرٍ نسخةٌ من طبعة أستاذنا أستاذ الدنيا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- وعلى أن يَتَلَبَّثُوا قبل البدء رُوَيْدًا لنصدح جميعا معا بقول الأصمعي: "أَوَّلُ الْعِلْمِ الصَّمْتُ، وَثَانِيه الْإِنْصَاتُ، وَثَالِثُه الْحِفْظُ، وَرَابِعُه الْعَمَلُ، وَخَامِسُه النَّشْرُ"؛ فكان له في نفوسهم مثل عمل السحر أَخْذًا وهَزًّا ووَخْزًا!

ثم أَختارُ منهم على الترتيب مَنْ يقرأ وهم صُمُوتٌ مُنْصِتون كأن على رؤوسهم طيرَ الفنِّ والعلمِ؛ فهم يخافون أن تَطيرَ عنهم بهما إلى غير رجعة، حتى إذا ما تَخَلَّلَ خلاياهم نَغَمُ الكلام الحكيم، وعرفتُ فيهم مَخايِلَ الطَّرَبِ العربي- ساءَلْتُهُمْ عن وجوه حكمته، ونافستُ بينهم، وأغريت بعضهم ببعض.

كُنّا نمضي على ذلك ما شاء الله، حتى إذا أزف الترحل وأيقنا أن قد وجب المجلس الأخير طلبت من كل منهم

نسخته من الدلائل لأكتب له على حاشية الموضع الذي انتهينا إليه ووقفنا عليه: "قُرِئَ عَلَيَّ وَأَنَا أَسْمَعُ فِي كَيْتَ وَكَيْتَ وَكَيْتَ".

وكان خبرُ ما نصنعُ كلَّ أسبوع قد بلغ بعضَ زملائنا، فسألني: أَيَسْتَحِقُّ أن يحضره؟ فنهيتُه عن حضوره؛ فلو لم يَكْرَهْ حُضورَه ما سألني، ولو حضره لانقلب السِّحْرُ على الساحر!



٢٥ صِفَةُ الْحَنِينِ

تجالسنا مرة صيف ٢٠٠٥ أنا وأستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف بمكتبه مكتب وكيل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة لشؤون التعليم والطلاب، وتذاكرنا بالخير عملنا خارج مصر.

ذكر الدكتور حماسة عمله بجامعة الكويت كيف كان موفقا حتى إنه لما هَمَّ بالإياب اجتمع الطلاب على خطاب واحد إلى أحد المسؤولين يرغبون فيه أن يستبقيه بما شاء.

وذكرت عملي بجامعة السلطان قابوس كيف كان موفقا حتى لقد احتفل بي هناك قسم اللغة العربية وآدابها لِيَثْنِيَنِي عن استقالتي، ثم نُقِلَ لي هنا عن الدكتور سعود الريامي رئيس الجامعة قولُه: هذه جامعة فلان -وذكرني- يأتيها وقتما يشاء.

قال الدكتور حماسة: فَلِمَ لا تَذْهَبُ إليها مرة أخرى؛ فقد رَغِبْتُ بعدما أُبْتُ من جامعة الكويت في أن أذهب إليها مرة أخرى، وكتبت إليها في ذلك؛ فرحب بي رئيسها قائلا: هذه جامعتك تأتيها وقتما تشاء، وكدت أذهب لولا عوائق عملي هنا.

ذهبتُ يومئذ إلى بيتي وقد احتشدت بي عُمانُ من أطرافها، ثم لم أَلْبَثْ أن أرسلت إلى عميد كلية الآداب أذكر له رغبتي في العمل نفسه مرة أخرى، وأُشيرُ إلى أنَّ هذا أقلُّ ما يُجيبُ به مِثْلِي مثلَ مقالة سعادة رئيس الجامعة الموقر الآنفة؛ فكان الدكتور حماسة -وما زال- يعجبُ كيف أَرغبُ فيُمْضِيَ العمانيون رغبتي!



٢٦ مَجَالِسُ الضِّيفَانِ

من ٢٠٠٥/٩/١٩ ثم من ٢٠٠٦/٢/٦، عملت فصلين دراسيين أستاذا زائرا بقسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس.

في أثناء الفصل الأول تقدمت إلى الترقي مرة ثانية بأربعة مقالاتي: "بين الأعشى وجرير: موازنة نصية نحوية"، و"تغزل الجاحظ عن الصناع: موازنة نصية عروضية"، و"كسر

الوزن بين أبي تمام والبحتري"، و"بين الرافعي وشاكر: موازنة نصية نحوية"؛ فقبلتها لجنة التحكيم وقدرتها تقديرا عظيما.

ولقد كان لأستاذي الدكتور علي أبو المكارم رئيس لجنة الترقية آنئذ، فضلُ إغرائي بالإنجاز من قبل -فلولا إلحاحه لَرُبَّما كَسلْتُ شيئًا ما- وفضلُ رَواج الإنجاز من بعد؛ فلولا ثَناؤه لَرُبَّما غَفَلَتْ عنه عيونٌ كثيرة شيئًا ما، حتى شَبَّهتُ عَمَلَه لي مرة بعمل مُكْتَشِفي النجوم، ولكنهم يعملونه حين يعملونه تربح تُجَّار، على حين يعمله حين يعمله تَكَنُّفَ أَئِمَّة.

ونشطتُ لنمطٍ من النصوص الفنية أثيرٍ لديَّ، يمتزجُ فيه النثرُ والنظم؛ فكان منه نَصَّايَ "مذاق العريمي"، و"ليالي نادي الموظفين"، هذا الذي أَلَّفَ لي قلوبَ الفنّانين وعَطَفَها عليَّ وعلَّقها وما زال، حتى ظَنَّتْ بيَ الظنونَ، وما زالتْ!

وفي أثناء الفصل الثاني سَلْسَلْتُ على بعض الصحف العمانية والمواقع الإلكترونية سلسلةَ مختارات، سَمَّيتُها "مُنَمْنَمَات على جدران المجالس العربية"، انتفعت فيها بسؤال من سألني من شعر الإخوانيات ما يَحْفِرُه على قُبَّة مجلس

ضِيفَانِه بقصره الجديد، فتَخَيَّلْتُ أنني أزور مجالس الضيفان من القصور العربية على الزمان، فأنقل مما حُفِرَ على قُبَبِها وجُدْرانها ما أَنْشُرُه على الناس لِيَطَّلِعوا من الأدب العربي على ما يُنير بصائرَهم ويهذب مسالكهم ويزيد مآثرهم.



٢٧ جُرْأَةُ الْحَالِمِينَ

أَبْتُ منتصف ٢٠٠٦ إلى عملي بقسم النحو والصرف والعروض من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة أستاذا مساعدا (مشاركا). وكُلِّفْتُ تَدريسَ المقرر من علمي الصرف والعروض على طلاب الفرقة الثالثة، ومن المستوى الثاني من مقرر "قاعة بحثٍ"، على طلاب ثانية الدبلوم. وأضيف هنا حديث المقرر من علم النحو على طلاب الفرقة الثالثة، الذي كُلِّفْتُ تدريسَه من قبل، لِمَا اتَّحَدَ في تدريس هذه المقررات

مِنْ مَعالم مَنْهَجٍ مُبْتَدَعٍ لم أَخْلُ معه من اختلاف أساتذتي وزملائي وتلامذتي.

أما مقرر النحو فقد وضعت فيه حوارية خيالية أدرتها على أربعة أشخاص أستاذ وتلامذة: أما التلامذة فأَنَسٌ القَداميّ الحافظ وأَيْمَنُ الحَداثيّ الشارح وبَرَاءٌ المُسْتقبليّ الطامح، وأما الأستاذُ فأَبُو مِذْوَدٍ الجامعُ الكاملُ. يبدأ المسألةَ أَنسٌ تاليًا أحسنَ ما قاله فيها القدماءُ، ويُثَنّي أَيمنُ شارحًا بما يُلائِمُ المُعاصرينَ، ويُثَلِّثُ بَرَاءٌ مُسْتطردًا إلى ما يَستغني به المُعاصرونَ أو يَطْمحونَ إليه، ويَخْتِمُ المسألةَ أَبو مِذْوَدٍ مُستدرِكًا عليهم بما لم ينتبهْ إليه أيٌّ منهم مِنْ لَطائفِ علمِ المعاني وبدائعه، ثم يَرتاحونَ جَميعًا أخيرًا إلى قطعة ملائمة من ألفية ابن مالك.

وكنتُ أَجري في المحاضرات على عرض أفكارهم النحوية الواردة ونقدها، حتى إذا ما قام قائمُ الخِتامِ غَنَّيْتُ قطعةَ الألفية، وضربتُ عليها بما تَيَسَّرَ لي مِنْ مَضاربَ؛ فدَهِشَ الطلابُ، وابْتسمُوا، وربما شاركوني، ثم حَيَّوْني، وشَجَّعوني!

وأما مقرر الصرف والعروض فقد جريتُ فيه على مَزْجِ بعضهما ببعض، باختيار قصيدتين من أشهر صور البحر المقرر، أعالج تخريج واحدة في علم العروض بالتَّقْطِيع والتَّوْقِيع والتَّفْعِيل والتَّوْصِيف، وأترك لِتَمْرين الطلاب واحدةً، وأَتَحَرَّى أن أعالج تخريج كلمات القصيدة الأولى نفسها في علم الصرف بين يدي مسائله المقررة، ليستقل بالثانية تمرينُ الطلاب. وأحرص على تَلَقِّي معالجات الطلاب وتصحيحها والتوقيع على كل منها بـ"بارك الله فيك، ونفع بك".

وكنت أجري في محاضرات التخريج العروضي على مثل عمل الفرقة الموسيقية وقائدها، وفي محاضرات التخريج الصرفي على تَغْلِيب التَّطْبِيق الجماعي مُنتفعًا بطباعة القصائد كلها على نحو غامض -وإن وَضَحَتْ بعدئذٍ القصائدُ الأولى- فكان الطلاب يُسابقونني ويتحدَّوْنَنِي، وربما استثقلوا العمل، ونَفَرُوا منه، ولكنهم لا يَلْبَثُونَ أن يعرفوا قيمته، حتى بالغ بعضهم فقال: لو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لوجب أن نُتَوِّجَ بحذائك رؤوسنا!

وأما مقرر "قاعة بحث ٢"، فجمعتُ له قرابة ثلاثين فكرة مُزْدَوِجة مما وقع لي على مدار الزمان من أوصاف العلاقات النحوية، كلُّ فكرةٍ زوجان مُتناقضان محتاجان إلى تفتيش نصوص الكلام العربي عما يُمثِّلهما، حتى تَتبيَّنَ حقيقةُ ما بينهما وحكمةُ علمائنا الذين عرفوها وميزوها بما تيسر لهم وحدهم من يقين وإخلاص وإتقان وثبات ورضا.

وكنت أجري في المحاضرات على تقديم مقدمة في النحو العربي نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين أُوَزِّعُ بعدها الأفكار على الطلاب أفرادًا وأَزْواجًا، ثم أُحدِّد لكل منهم محاضرة يستقل بها وحده أو مع شريكه، على أن أُقدِّمَ لها بما أَتخيَّل أن تكون عليه، ثم أُتيحَ لسائر الطلاب نقدَها، ثم أَختِمَها بنقدي، على أن يستفيد الطلابُ مما نَقِدوا في تهذيب كتابتهم الأخيرة؛ فكانوا يَتنافسونَ في العمل والنقد والتهذيب، ويُسَجِّلون المحاضرات، وينشرونها، حتى طار لها في كل مكان ذِكْرٌ وشُكْرٌ.



٢٨ مُنْتَهَى الرِّئَاسَةِ

اشتغلت منذ ٢٠٠٦ بأعمال الدراسات العليا تدريسا وإشرافا ومناقشة -وإنها لمشغلة جليلة تفنى دونها الأعمار، لولا أعمالي الخاصة- فاجتهدت أن أنتفع بها مثلما أنفع غيري.

أما في التدريس فقد كُلِّفْتُ مشاركة أخي الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز عبد الدايم في تدريس علم أصول النحو وكان قد اجتهد للطلاب اجتهادا كبيرا في وقفهم على نظرية الاستدلال النحوية العربية حتى اجتمع له فيها كتاب

طريف؛ فرأيتُ أن أَقِفَهُم على وَحْدة أصول التفكير اللغوي العربي من خلال عرض ما اجتمع لي في مقالي "التوافق أحد مظاهر علاقة علم العروض بعلم الصرف".

وأما في الإشراف فقد سَجَّلتُ لبعض تلامذتي مسائل رسائلهم للماجستير، وسرت معهم ما شاء الله، ثم حال دونهم سفري مرة أخرى، وإن لم ينقطع حبلُ ما بيننا، ولا فَتَرَتْ بَهْجَتِي بمثل: "التفصيلات النحوية بين النحويين والمفسرين الزمخشري نموذجا"، و"ظاهرة الحذف في ديوان الحماسة"، و"خصائص تراكيب الإجمال والتفصيل في أحاديث صحيح البخاري"، و"خصائص التركيب الحواري بين القرآن الكريم والحديث النبوي"، وغيرها مما اجتمعنا عليه من مسائل لطيفة طريفة.

وأما في المناقشة فقد كانت فواتحها من عجائب الأقدار؛ إذ شاركت في أولى مناقشاتي لرسائل الماجستير أحد مَنْ رَفَضَا أعمالي أولَ ما تقدمتُ للترقي إلى درجة أستاذ مساعد. وعلى حين كان فاترَ الهمة للمناقشة عندئذ قليلَ العناية،

اهتممت لها، واعتنيتُ بها، حتى كان يضطربُ في مجلسه طَرَبًا لما يسمع، ثم لم يملك حين خلونا للمداولة إلا أن يعتذر بما الذنبُ أحسنُ منه. وشاركتُ في أولى مناقشاتي لرسائل الدكتوراة ثانيَ من رفضا الأعمال أنفسها، ولم يكن على فضله أنشطَ ولا أكثرَ عناية، حتى لقد أصرَّ أن أَتقدَّمَه ليعتمد عليَّ ويكتفي بي، فكان يقتبس من مناقشتي راضيا عما رأيت- ولَرُبَّما لو اطَّلَعَا على الغيب لكان لهما رأيٌ آخر، وسبحانَ مَنْ نُريدُ ولا يكونُ إلا ما يُريدُ!

ولقد جريت فيما أناقش على أن أقرأ الرسالة، وأعلق عليها، ثم أنقل التعليقات إلى الحاسوب، وأصنفها، وأرتبها، وأهذبها، حتى تستوي كأنها مقال في نقد الرسالة أستغني به في المناقشة عن الرسالة، ثم أنشره فيما بعد للطلاب على الإنترنت. وحرصتُ دائمًا في ذيل هذا المقال على تَجْهِيز نَصٍّ كبير كامل من أصل مادة الرسالة المناقشة بلا شكل ولا ترقيم، ليقرأه الطالب من فوره على الملأ بدلا من سرد بقية تعليقاتي عليه وعلى الحاضرين.



٢٩ دُعَاءُ الْمَدِينَةِ

وعلى رغم يقيني بما في المؤتمرات العلمية من فضيلة تعارف الباحثين زهدتُ فيها، وعزفتُ عنها يأسًا من مناسبة أعمالي لها، ولم أزل أتوهم أن يأتي يوم يكون لها هي نفسِها فيه مؤتمرٌ خاص!

ولكنني كلفت المشاركة في مؤتمر "نحو خط عربي أفضل"، بمكتبة الإسكندرية؛ فاتخذتُه مُتنزَّهًا رحلتُ إليه بثلاثة من أطفالنا، فإذا مكانٌ حسنٌ رَحيبٌ ومُجتمعٌ لطيف

كريم أتاحا لي أن أبسط فكرة مقالي القديم "مهارة الكتابة العربية عند طلاب قسم اللغة العربية المعلمين"، على جهة تعليم الخطاطين -إذ قد أَلَمَّ ببعض مشكلات الإملاء والتشكيل- وأن أُنْشِدَ قصيدتي القديمة "من تكاذيب الأعراب"، على جهة تثقيف الخطاطين -إذ قد اشتغَلَتْ باستنطاق دخائل الحروف العربية- واحتفيا بهما حفاوةً شديدةً، حتى رفعني بعض الفنانين على نفسه في منزلة عليا هناك حيث يجتمع الفن والعلم في صدر واحد!

ثم دعيتُ إلى مؤتمر جمعية مدرسي اللغة العربية الإندونيسية بمدينة باندونج من جزيرة جاكرتا، فأجبتُه ببحثي هذا السابق نفسه "مهارة الكتابة عند طلاب قسم اللغة العربية المعلمين"، وسافرتُ إليه ليلة ويوما، ورأيتُ ما لم أر قطُّ، ولم أَلْبَثْ بعدما أُبْتُ أن كتبت فيه كتابا لطيفا سميته "مؤتمر باندونج بلا جمال عبد الناصر"، وقدمت نسخا منه إلى إدارة الجامعة والكلية والقسم ثم نشرته على الإنترنت.

ثم كلفت المشاركة في مؤتمر قسمنا "العربية والدراسات البينية"، إعدادا وتقديما- الذي صادف مني أهلا وسهلا ومرحبا؛ فبنيت تقديمه على ما يلائم رسالته في لغة خاصة، آلفت بيني وبين مَنْ يَعرفونَ ولا يُنكرونَ، وخَالفتْ بيني وبين من يُنكرونَ ولا يَعرفونَ، فاستعنتُ بأولئك وزِدْتُهُم معرفةً، على هؤلاء وزِدْتُهُم إنكارًا، بمشاركتي في أوائل جلساته بمقالي "بين زهير والفرزدق: موازنة نصية عروضية، الذي ظهر على كُتّاب المؤتمر؛ فزهق كل زهوق!

وكنتُ في هذه السنوات قد وَرَّدْتُ لنفسي أورادا يومية من صحيح البخاري بعقب أورادي من القرآن الكريم، واستقرت الأوراد، واستمرت، فإذا أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف يهاتفني قائلا: تذهب إلى المدينة المنورة، وكان عميد كلية التربية بجامعة طيبة قد لجأ إليه في حاجة طارئة؛ نخضعتُ قائلا: صلى الله على محمد، صلى الله عليه، وسلم!



٣٠ بَابُ السَّلَامِ

أَبَتْ طبيعة مكة المكرمة الجبلية أن ينبسط فيها مطار فلا يصل إليها المسافر جوا إلا عن طريق مطار جدة ثم طريقها البري، وما كذلك المدينة المنورة السهلية؛ فلما قصدناها بمطار القاهرة سألني ضابطه المراقب: إلى أين؟ قلت: إلى المدينة المنورة؛ فابتسم لها، على ساكنها الصلاة والسلام!

مساء ٢٠٠٨/١١/٢٢ وصلتُ إلى مطار المدينة المنورة، فحولت ما معي من نقود مصرية، واشتريت شريحتَيْ هاتفٍ مشحونتين مترابطتين بمزايا طريفة، وترددت بين الموظفين أسأل عمن جاء يستقبلني من جامعة طيبة؛ فما أجابني أحد غير واحد ضحك لكلامي قائلا: أنا هنا من قديم، ولم أسمع بمن جاء من الجامعة يستقبل أحدا!

لجأت إلى من أوصاني به أحد أساتذتنا الأجلاء الكرماء السابقين إلى جامعة طيبة بثلاثين عاما الراحلين عنها قبيل وصولي -رحمه اللهُ، وطيب ثراه!- فكان بقريب من المطار، ولم أكد أنتظر، حتى جاءني، فحملني إلى شقة أحد الغائبين من الأساتذة المصريين الكرام، وأكرمني، ووعدني أن يُبَكِّرَ إليّ لنذهب إلى السلام على رسول اللهِ، صلى اللهُ عليه، وسلم!

صحوتُ قبل الفجر، فتوضأت، ولبست، وأخذت مفتاح الشقة، وخرجت إلى الشارع أرجو إدراك الصلاة بأحد المساجد القريبة، فما وليت شطرا إلا رأيت جماعات

الناس تسعى منه إلى جهة واحدة، فلم أَرْتَبْ في أنها أقرب مسجد، فتبعتُ بعضهم، فخرجوا من زقاق إلى درب فطريق فزقاق فدرب فطريق؛ فإذا الحرم النبوي الشريف، وإذا قائم الصلاة قد قام، والإمام الحذيفي ولكن بصوتٍ أصخم مما عرفت وأخشن ونغمٍ أزيد وانطلاقٍ أَعْثَر.

صليتُ، ثم طلبت السلام على رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- فدُلِلْتُ على باب السلام؛ فأسرعت إليه، فإذا جماهير محتشدة قبلي أمام الباب، أعجمية لا يبلغ العرب فيها شيئا، فدخلت فيها، وانفتح الباب، فما دخلتُ دخولي، ولا مشيتُ مشيي، ولكن تَرَكْتُ نفسي لتيار الداخلين حريصا على ألّا أتَعَثَّر أو أميل يمينا أو يسارا فأسقط سقوطا لا قيام بعده، وصبرتُ صبرًا شديدًا، حتى إذا حاذيتُ المقامَ الشريف وقد نبِّهنَا عليه بِكتابةٍ سلَّمتُ على رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- بأحب أسمائه إليه، وقرأتُ عليه سلام أبي وأمي وإخوتي وأسرتي وأساتذتي وزملائي وتلامذتي، وتلوت بين يديه مِمّا كان يتلوه من القرآن الكريم والحكمة -صلى الله على محمد،

صلى الله عليه، وسلم!- ثم سلمتُ في جواره على صاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص الفاروق، رضي الله عنهما، وجمعنا جميعا معا في مستقر رحمته، آمين!



٣١ حَيَّ الْكُرْدِيِّ

كانت جامعة طيبة على أطراف المدينة المنورة أمام الجامعة الإسلامية وبينهما طريق طويل عريض فيه حد الحرم، فكانت الجامعة الإسلامية داخل الحرم وجامعة طيبة خارجه، وكأنه كان حد منهجيهما المختلفين؛ إذ غلب على الجامعة الإسلامية تشدّد السلفيين، واستقلَّتْ جامعة طيبة بتخفّف المتحررين، حتى ذَكَرَ لي من لم أتهمه عن بعض المسؤولين أنَّها إنما أُنْشِئَتْ من أجل مُوازَنَةِ الجامعة الإسلامية.

أقمتُ وحدي بحي الكردي الكريم حيث أستطيع أن أصل إلى الحرم مشياً في قريب من أربعين دقيقة وإلى الجامعة راكبا في قريب من ربع ساعة. وكان بعض قدامى المصريين قد أعانني أول مرة على الذهاب إلى الجامعة وأنزلني جهة الجامعة الإسلامية، فنظرت إلى الجهة المقابلة، فإذا بوابة ضخمة عليها ضباط أمنها ووراءها بَيْداءُ بَلْقَعٌ، فتجاوزت إليها، وتعرفت إليهم، وسألتهم عن تسلم عملي فدَلُّوني على مبان متنقلة خفيفة، وعن كلية التربية فدلوني على مبنى ثابت مُصَفَّح، فتنقلت بينها، وصبرت عليها، وتطلعت إلى معرفة عملي.

لقد وصلت في أثناء فصل الخريف بعدما عرف كل أستاذ عمله ومضى فيه إلى نصفه، فكنت بين أن أبقى بلا عمل حتى آخر الفصل وأن آخذ من أعمالهم -وإن قطعتُهم عنها- فأخذت من أحد الأساتذة محاضرة عروض ومن غيره محاضرة لغة عربية عامة، وبقي عملي قليلا خفيفا.

كانت المحاضرات صباحية، فكنت أصلي الفجر بأقرب مساجد الحي، ثم أخرج إلى مطعم الجَرَّة الذهبية الشعبي بجانبه

حيث يعمل بعض البنغاليين، فأطلب طَبَقَ عدس بزيت الزيتون وطبق طعمية بالحِمِّص الشامي، فيأتيانني ومعهما نصف رغيف ضخم من خبز التَّمِيز الأفغاني الذي أَثْنَى عليه لي مرة أستاذ مصري كريم بكلية العلوم، بأنه يُحْدِثُ من الطاقة ما يَجُرُّ سيارة!

وكان المخبز الأفغاني في جوار المطعم كأنه منه، ولكن يحتاج فيه الخباز الأفغاني بعد خروجه معنا من المسجد إلى وقت كاف لإحماء الفرن وإنضاج الخبز الذي يُجَهِّز عجينته من الدقيق المخلوط بخَلْطَتِه الأفغانية، ثم يفرش منها على مَخَدَّة صغيرة كالتي يسميها المصريون تَرْبِيعَة، ثم يمسكها من الجهة الأخرى بجُمْع كَفِّه ليُنزل يده إلى داخل فرن خاص كأنه فرن الكافة المصرية البلدي بلا صينية، فيلصق الرغيف على جداره حتى ينضج.

أَتحرَّر من أَسْر الإفطار، ثم أصعد، فألبس لأخرج إلى الطريق، فأركب إلى الجامعة أية سيارة بعشرة ريالات أو خمسة عشر، حتى عاقدت سائقا مصريا قديم العهد بالمدينة،

فأراحني من سيارات الطريق ومفاجآتها. وإذا عدتُ ذهبتُ إلى مطعم الأمراء السوري حيث يجهز لغدائي شَوَّاؤُه المصريُّ نصف دجاجة مشويا على الفحم وسلطة خضراء وكأس عصير رمان كبيرة؛ فأتحرر من أسر الغداء، فأما العشاء فلا عشاء إلا ما لا ذكر له.



٣٢ حَدُّ الْحَرَمِ

كَلَّفَني قسم اللغة العربية تدريس مقرراته للطلاب والطالبات كليهما: فأما الطلاب فأحاضرهم مواجهة بفصول تدريس معهودة بحرم الجامعة، وأما الطالبات فأحاضرهن مُراسلةً بمثل أستديوهات الإذاعة والتلفزة حيث أجلس أمام آلة تصوير منضبطة بتلفاز إلى جانبها على مكتب تَصطفُّ عليه سَمّاعةٌ وأزرارٌ كثيرة مُرَقَّمة موصولة بمقاعد الطالبات في فصولهن الداخلية، وعن يميني مِعْراضُ اللوحات والحاسوبُ،

فإذا شئت حاضرتهن صوتا وصورة وكتابة، فكنت أحاضرهن صوتا وكتابة، حتى فاجأني مرةً صخبُهنَّ وضحكهن؛ فأقمت نظري، فإذا صورتي على التلفاز وقد ضغطت زر الصورة غافلا مشغولا بجمع أوراقي وترتيبها، وربما كُنَّ ظَنَنَّ الظنونَ بامتناعي مِنْ بَثّ صورتي، فأَخْلَفَهُنَّ اليقينُ!

وكنت كلما سألت طالبة فتحتُ زِرَّ مقعدها فأجابتني برقمها فأمرتُها أن تجيبني باسمها ساخرا مما في ترقيمهنَّ من شبهة السجن، وكانت عليهن مشرفة تثبت حضورهن وغيابهن وترعى التزامهن بنظام المحاضرة، فغابت مرة، واحتجت إلى سؤال طالبة لم أسمع لها صوتا، فلم أسمع منها جوابا، وإذا هي قد ذهبتْ عن فصلها وغادرتني أَتَوَهَّمُها توهمًا؛ فغضبتُ على المجموعة كلها، وألغيتُ المحاضرة، فجاءتني بها المشرفة من المحاضرة اللاحقة تعتذران جميعا.

وقد لقيت من هؤلاء الطالبات عجبًا أيَّ عجب؛ إذ كان في بعضهن اجتهادٌ كبير وفي بعضهن كسلٌ أكبر، فأما المجتهداتُ فلا عجبَ في عَرَبِيّاتهن، بل في غيرهن من

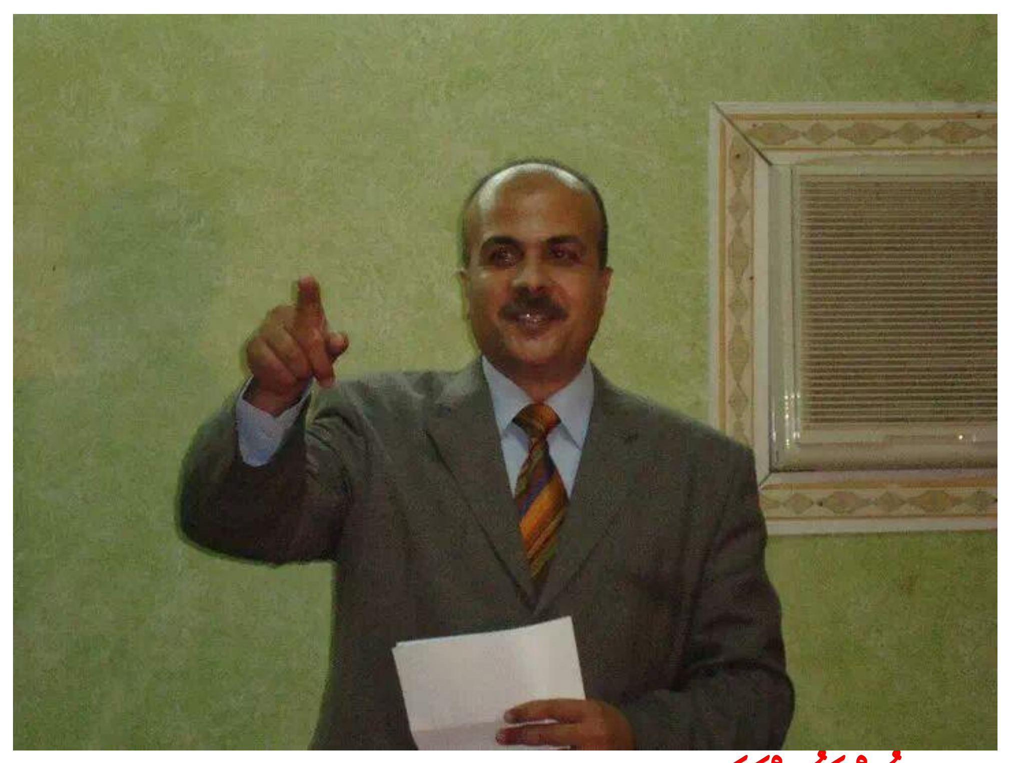
الأَفْغانيّات والبُخاريّات والشِّيشانيّات والتَّتاريّات وغيرهن، ممن هاجر أهلهن إلى المدينة المنورة حديثا وهم كثير، واستقروا بها، واجتهدوا فيها، حتى صاروا أحسنَ من غيرهم عروبةً وإسلامًا.

وأما الكسالى منهنّ فكلُّهن عربياتٌ! ذكرتْ لي إحداهن أنها لا تعبأ إلا بالتجارة، وأَخَّرتْ غيرُها واجبَها، وأرسلَتْه مع أبيها إلى حيث أقيم، فخرجت إليه ألقاه، فأعطاني ملف واجبها وشيئا ملفوفا قائلا: أقسم بالله ما هو برشوة؛ فأبعدتُه قائلا: أقسم بالله ما هو إلا رشوة، وكان أخا وكيل الكلية، ورسبت ابنته!

ربما لم يستطع وقد جاءني ألا يُهْدِيَ إليَّ، ولم يُقَدِّرْ أن أخرج إليه ولا أستضيفه. وقد اطلعتُ على أن أهل المدينة لا يَتَرَاشَوْنَ، ولكنّ بعضهم يَتَرَاعَوْنَ؛ فيعتني بعضهم بمصلحة بعض، ولا يحل لهم؛ فمن ذلك أنني رَسَّبْتُ طالبا، فعرف أخوه، وعثر على رقمي وكان موظفا بشركة الطيران السعودية، فكلمني فيه أكثر من مرة دون جدوى وكان لي بشركة

الطيران عندئذ مال لم أستطع أخذه ولم يكن ليساعدني حتى أجيب طلبه -وشَتَّانَ الحلالُ والحرامُ!- فآثرتُ أن أستعمل مالي في رَفْع درجة تذكرتي، ولم أجب طلبه.

وكَثُرَتِ الراسباتُ وشكاواهنّ، وارتفعت إلى نائب رئيس الجامعة؛ فدعاني، وجادلني فيهن، ولم يملك أن يُنَبّهني على شيء، حتى إذا احتججتُ برسالة إحدى الطالبات تُثْني فيها على عَدالة الدرجات ولم تحصل هي على درجة عالية، قَبِلَ الحُجَّةَ، ولكنه نَبَّهَنِي على ألا أسمح للطالبات باستسهال مراسلتي.



٣٣ خُطْبَةُ الْوَدَاعِ

طوال مدة ما بين ٢٠٠٨/١١/٢٢ و٢٠١٠/٦/٣٠ التي قضيتها بجامعة طيبة لم يتح لي أن أخاطب غير طلابي وطالباتي إلا أربع مرات.

أما المرة الأولى فعندما اجتمع بالأساتذة الجدد قسمُ اللغة العربية، ودعاهم إلى تعريف أنفسهم، فصال كل منهم في ذلك، وجال، حتى إذا ما أفضى إليّ الكلام اكتفيتُ

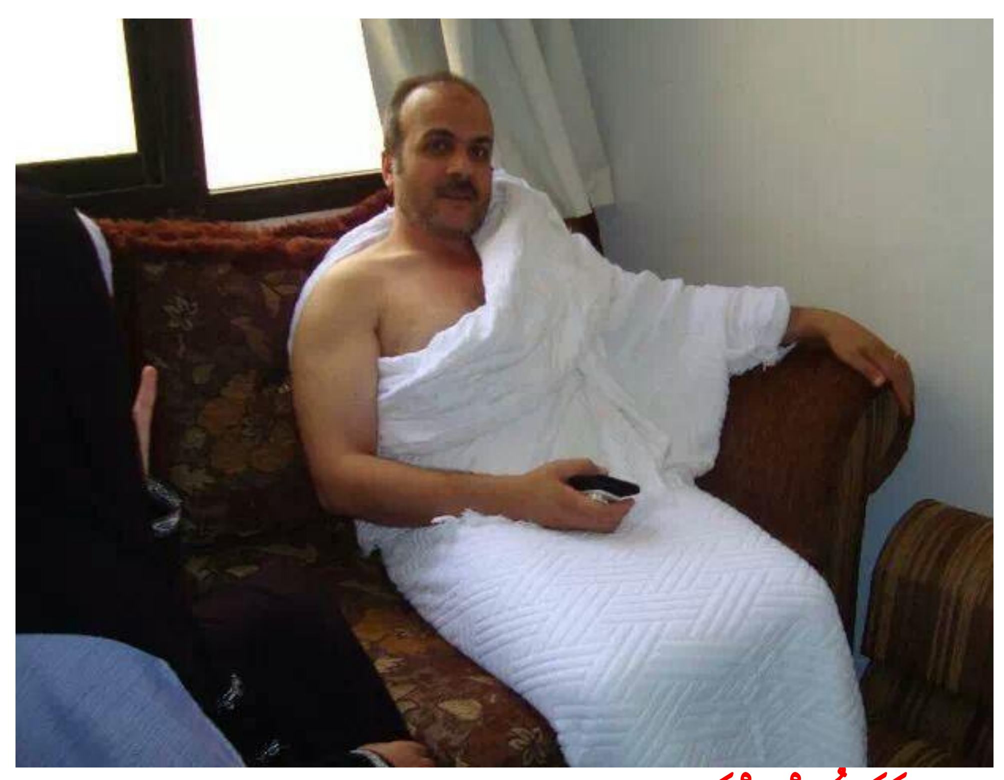
بإنشاد قصيدتي "لغوي في مجلس خطبته"؛ فاحمرتْ لها وجوهُ بعض الحاضرين إلى حين!

وأما المرة الثانية فعندما دعاني نادي المدينة الأدبي إلى المحاضرة فيما أحب مما يلائمه، وكان من عادته أن ينشر إعلانات محاضراته على أرجاء المدينة المنورة في معارض خاصة يراها المارة؛ فاحتشدت فئات مختلفة من المثقفين والمثقفات، وحاضرتُهُم كذلك مُواجهةً ومُراسلةً في إشكال ما بين الشعراء والنحويين، وتلقيت أسئلتهم واعتراضاتهم، وسرني كثيرا حضور الدكتور عبد الله عسيلان الحبر الجليل رئيس النادي وإشراكي له في المحاضرة وتعقبه لي وتعليقي عليه.

وأما المرة الثالثة فعندما احتفل بالأساتذة المغادرين قسمُ اللغة العربية، في بستان سيدنا أبي هريرة -رضي الله عنه!- ودُعيت إلى الكلمة عنهم وعني ولم أكد أمكث سُبعَ ما مكث بعضهم؛ فذكرت شرف المكان وحقوقه وبركاته واحدة واحدة ومعاذرنا عن مغادرته، ونصحت لرؤساء القسم، وميزت مزايا

أساتذته على نحوٍ يَحارون فيه، ولكنهم احتفَوْا بي جميعا حفاوة شديدة وفي الضيوف الدكتور سليمان الرحيلي عميد الكلية يسمع ويرى.

أما المرة الرابعة فعندما دعاني إلى قَصْرِهِ الدكتور سليمان الرحيلي عميد الكلية نفسه قائلا: ما ينبغي لمثلك أن يأتينا ويذهب عنا هكذا؛ فَلْنَضْرِبْ عصفورين بحجر استضافتك، نحتفل بك، ونستمع إليك. وإذا له صالون ثقافي أول أحد من كل شهر عربي يسميه "الأحدية"، يستضيف فيه من يحب، ويجتمع عليه هو ومن شاء، فيحاضرهم، ويناقشونه، ثم يتعشون، ويذهبون. وعرفني لهم، وحاضرتهم في فلسفة الأسماء العربية، فكأنما أخلفتُ توقُّعَهم؛ فثارت تعليقاتُهم، وذهب أحد صحفيي جريدة الوطن السعودية يصيح في جريدته بانفجار الاختلافات في أحدية الدكتور سليمان الرحيلي!



٣٤ مَقَامُ الْإِحْرَامِ

في معتكفي بحي الكردي من المدينة المنورة اعتصمت بكثير من الكتب الكبار، أقرؤها، وأعيد قراءتها، وأعلق عليها ورقية ورقمية. وجهّزتُ للنشر بعض كتبي، ووضعت بعض مقالاتي، فكان في ذلك مُؤتنَس أيُّ مُؤتنَس!

فمن الكتب الكشاف للزمخشري، وتهذيب الآثار للطبري، وديوان ابن الرومي، وبعض كتب يحيي حقي، ومدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين للدكتور نجيب

البهبيتي، وحياة الشعر في الكوفة للدكتور يوسف خليف، واللغة العربية معناها ومبناها والبيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان، وجمهرتا أبحاث الدكتور محمود محمد الطناحي ومقالاته، وفي صالون العقاد كانت لنا أيام وغيره لأنيس منصور.

وعاقَدْتُ مكتبة دار السلام على نشر كتابي "مهارة الكتابة العربية"، وأجبتها إلى تبْيِين بعض غوامضه، وأتممتُ تعليقاتي على متون الكتب العربية، ووثّقتها، وعنونتُها، ورتبتُها، وفهرستُها هي وأعلامَها، وعاقَدْتُ مكتبة الإمام البخاري على نشرها بكتاب لم يخطُر لي قطّ ببال، سميته "دليل المُتَثقّفين".

وأقدمت من غير سابقة لي على إقامة مقالي "خصائص التفكير العروضي اللغوي بين نظم المنثور ونثر المنظوم"، على مادة رقمية خالصة- على حين أقمت مقالي "تطور تفكير الجرجاني النحوي من المقتصد إلى الدلائل"، على مادة ورقية مجهزة من إحدى عشرة سنة، لم يتيسر لي أن أتأملها إلا عندئذ.

وهناك بأحد معامل الإنترنت دعاني بعض نجباء تلامذتي إلى المشاركة في الفيسبوك، فكأنما انتشرتُ به من كمون، وآثرته بأوقات فراغي على غرفة أساتذة قسم اللغة العربية الكئيبة المنقطعة من وسائل التواصل، حتى وَجَدَ عليَّ رئيس القسم؛ فاستقلت ولم أكد أتجاوز عاما ونصف عام!



٣٥ تَعْرِيبُ الصِّينِ

أبت إلى القاهرة من المدينة المنورة عن طريق جدة إبان اختلاف مديري شركتي الطيران السعودية والمصرية، وكان في اختلافهم رحمة لي عظيمة ونعمة عميمة؛ إذ اغتنمتُ أربع ساعات ما بين الطائرتين، فركبتُ إلى مكة المكرمة، واعتمرتُ ليخلو للقاهرة الباهرة موضعٌ من صحيفتي!

تسلمتُ عملي بقسم النحو والصرف والعروض من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة أستاذا مساعدا (مشاركا). وكُلِّفتُ

تدريسَ مقرراته، وانسلكت في أعماله وأعمال الكلية، حتى دعيت إلى المحاضرة بكلية اللغات الأجنبية من جامعة بكين بجمهورية الصين الشعبية.

عرضتُ الدعوة على رؤسائي بالكلية وأساتذتي، فوافقوا على سفري، وعدُّوه فتحًا على الحقيقة جديدا من فتوح دار العلوم، ولكنني لما عرضتُ الدعوة نفسها على السفارة الصينية في طلب تأشيرة الدخول، استغربها الموظف المصري هو ومن حوله من الموظفين الصينيين، ولم يجيبوني، وحاروا، وحيَّروني، حتى أَفْلَتَتْ مني عبارةُ أَنَّ تذكرة سفري مدفوعة من الصين؛ فعندئذ اطمأنوا، وأعطوني التأشيرة!

لو لم تكن معي على الطائرة الدكتورة وُو (زكية) زوج رئيس معهد كونفوشيوس لَكَرَبَني كَرْبٌ عظيم بما حملتُ من كتبٍ ارتابتْ فيها بمطار بكين الضابطةُ الصينيةُ، وجَنَّبَتْنِي جانبًا، فأدركتْني الدكتورة وُو (زكية)، ورَطَنَتْ لها ما أَفْلَتَنِي منها إلى حيث استقبلني الأستاذ عبد القادر -ولا أذكر اسمه

الصيني- أحد أساتذة قسم اللغة العربية الأفذاذ الذين لا يجود بأمثالهم الزمان.

كنتُ قد حملت معي نسخة من تقويم كلية دار العلوم ونسخة من كتبي ونسخا فرعونية كثيرة من التقويم السنوي، فلما استقر بفندق جامعة بكين مقامي أخرجتها، وأهديتها الدكتور فُو جِي مِينْغ (أمين) رئيس قسم اللغة العربية الشاب الوسيم الذي بادرني قائلا: أَكْبُرُكَ بعام، فإذا هو مُطَّلِع على سيرتي، وعلى فضل كهولته على كهولتي!

تناولتُ الجزء الأول من تقويم دار العلوم، وذهبت أُقلِّبه رغبة في مفاجأته بشيء فيه؛ فبادرني قائلا: محمد مكين؟ وإذا هو مُطَّلِع على أن مؤسس قسمهم أحد خريجي كليتنا سنة ١٩٣٩، الصيني المسلم العظيم، مترجم معاني القرآن إلى الصينية، ومترجم الزعيم الصيني الكبير ماوْ تِسِي تُونْج؛ فَلْأَكُفَّ إذن عن مفاجأتهم ولْأَدَعْهُمْ يفاجئونني!

ولقد كان من حسن سياستهم أن يُقدِّموا الترفيه على العمل -وإن لم يمكن للوقت مهما طال أن يستوعب طرفا من

مَبَاهِر الصين ومَفَاخرها- حتى إذا ما قام قائم العمل عرف المحاضر مَنْ يُحاضر وكيفَ يُحاضر، وأنَّه إِذْ يعلِّم يَتَعلَّمُ أكثرَ مما يُعَلِّم!

كيف أصفُ سور الصين العظيم الذي مَنْ لم يَزُرْه فليس برجل، كما يقولون في أمثالهم، ولم يزوروه هم جميعا أصلا! أم كيف أصف المدينة المحرَّمة التي تَجَبَّرَ فيها وبها الإمبراطور الصيني على البلاد والعباد! أم كيف أصف ميدان تِيان المستوعب للسماء على الأرض المخوف دائما اضطرابُه وانقلابُه! أم كيف أصف جامعة بكين التي لم تترك شيئا من مظاهر الجمال والجلال والبهاء والدهاء إلا استَرْعَتْه واستوعبته! أم كيف...! أم كيف...! أم كيف...!

وقفتُ أُباري مَساحر جامعة بكين بمساحر اللغة العربية، أُطْلِع شُهودي على رحلتها من قديم إلى حديث، وفيهم طلاب الليسانس والماجستير والدكتوراة والأساتذة والمسؤولون وبعض من يدرس هناك من المصريين؛ فلم أكد أَفْرُغُ من إحدى المحاضرات حتى قالت لي معيدة مصرية

بكلية الآداب من جامعة القاهرة تطلب الماجستير في اللغة الصينية: لو عرفتك من قبل لحضرت لك بدار العلوم- ولا من محاضرة أخرى حتى قال الدكتور فُو جِي مِينْغ (أمين) رئيس قسم اللغة العربية نفسه على مسامع عميدة الكلية فيما ترجم لي بعد الفَوَات: لا تقيسوا على الدكتور صقر! وإذا هو من دعاة تَغْلِيب العامية المصرية على اللغة العربية الفصحى، ولا حول ولا قوة إلا بالله!



٣٦ مَعْهَدُ الْمَخْطُوطَاتِ

عدت من رحلة عملي القصيرة بجامعة طيبة من المدينة المنورة (٢٢/١١/٢٠٠٨-٣٠/٦/٢٠١٠)، فرغب إليَّ أخي الكريم الفاضل الدكتور فيصل الحفيان مدير معهد المخطوطات، أن أدرّس علم الكتابة (الخِطاطة)، لطلاب قسم البحوث والدراسات التراثية بمعهد البحوث والدراسات العربية من المنظمة العربية للتربية والثقافة العلوم بجامعة الدول

العربية، القسم الذي استُحدث بالمعهد لخدمة معهد المخطوطات بالمنظمة نفسها، فأجبته.

على رغم ما كان لهذا العلم في القسم من برنامج مفردات، رأيت أن أدرس للطلاب كتابي "مهارة الكتابة العربية"، وأستطرد في أثناء ذلك إلى ما أستحسن إضافته. وقد بقيت مرتابا فيما أصنع حتى اعترض طريق مُنصرَفي مرةً الدكتور عصام الشنطي شيخ مفهرسي المخطوطات العرب – رحمه الله، وطيب ثراه!- فأعطاني خطابا كأنما أراد -لولا تلاقينا- أن يرسله إليّ، وإذا هو ثناء على الكتاب عظيم -ولا ريب أن الطلاب أطلعوه عليه- يذكر فيه أنه كأنه اختراع في بابه مثل اختراع الكيميائيين في بابهم؛ فأزال عني ما بقي من ارتيابي!

ثم دعاني الدكتور فيصل الحفيان كذلك إلى تدريس علم النحو، فأجبته، ولكنني درست للطلاب عندئذ كتاب الأستاذ عبد العليم إبراهيم "النحو الوظيفي"، ومنذ عملت بقسم البحوث والدراسات التراثية لم أنقطع حتى سافرت عن مصر.

كانت مكافأة المحاضرة ستين دولارا، لولا قلة المحاضرات لَتجمَّع بها كل شهر مقدار طيب، ولكنني استلطفت العمل؛ فقد كان بالمقر التعليمي في ميدان الدقي من الجيزة العزيزة قريبا من جزيرة الروضة جنوبي القاهرة الباهرة حيث أقيم، وكنت أحاضر فيه الطلاب العرب والمستعربين من كل مكان!

ومن طرائف لقاءات هؤلاء الطلاب أن سلَّم عليَّ مَخرَجَنا من المحاضرة متعمِّمٌ سوري مهيب، أراد أن يثني على القسم؛ فاستدل بأن من أساتذته الدكتور محمد جمال صقر تلميذ محمود محمد شاكر -رحمه اللهُ، وطيب ثراه!- فقلت له: هذا أنا أستاذك، فكان كأنما خذلته! ومن طرائفهم أنني وجدت في قائمة أسمائهم اسم إحدى أميرات آل سعيد سلاطين عُمان - وكنت أنتظر توظيفي بقسم اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس العُمانية- ولم تكن تحضر بحيث تعرف ما أدرسه وتخوض اختباراته؛ فرسّبتها، ثم لم يمرّ شهران حتى حظيت بالوظيفة!

كنت أبكر إلى العمل قبل الموعد، فأرتاح إلى غرفة الأساتذة، ولاسيما أنني كنت أجد بها قبلي الدكتور يوسف فايد ذا الثمانين عاما رئيس قسم البحوث والدراسات الجغرافية، قد جاء من بيته ماشيا رشيقا أنيقا طموحا حفيا؛ فأفرح به، وأغريه بالكلام في كل فن؛ فيتكلم، وأنصت، حتى فاجأني مرة بأنه كان صديق جمال حمدان جغرافيّنا النابغة صاحب "شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان"؛ فازددت به فرحا وله إغراء، وازداد بي حفاوة ولي كلاما!

وكان ألطف ما قاله لي عن جمال حمدان أنهما ومعهما غيرهما من الجغرافيين كانوا يصطفون أمام الخريطة المعينة يجتهدون في تحليلها فكان جمال حمدان يرى دائما فيها ما لا يرونه؛ فكنت -وما زلت- أذكر ذلك لطلابي في مقام التأمل! ولكنه فاجأني مرة برد رواية قتل جمال حمدان، بأنه إنما مات مختنقا بغاز الأنبوبة التي لم يكن يعبأ قط بإصلاح خرطومها المتهرئ!



٣٧ مَعْمَعَةُ الثُّوَّارِ

لم يخطر لي قبل أن أؤوب من الصين ألا أنقطع في مصر لحكاية ما رأيتُ بها وسمعتُ ولمستُ وشممتُ وذقتُ ووجدتُ مثلما فعلتُ برحلتي إلى أندونيسيا التي وضعت فيها مقالي الطويل "مؤتمر باندونج بلا جمال عبد الناصر"، ولكنني اشتغلت بالتقدم للترقي إلى درجة أستاذ قبل موعدي.

تقدمتُ بستة مقالاتي: "بين زهير والفرزدق: موازنة نصية عروضية"، و"ظاهرة الإدهاش العروضي اللغوي في شعر

المتنبي"، و"حسن سرقة الشعر: دراسة عروضية نحوية"، و"تطور تفكير الجرجاني النحوي من المقتصد إلى الدلائل"، و"خصائص التفكير العروضي اللغوي بين نظم المنثور ونثر المنظوم"، و"درجات التضمين العروضي"، فلم تكد لجنة الترقية تُوَزِّعها على محكميها، حتى ثارت مصر على حكامها، وولَّينا جميعا معا قُلوبَنا وعُقولَنا ووُجوهَنا شطر ميدان التحرير.

لَكَأَنَّما انتظر المحتشدون فراغي من تجهيز أعمالي، حتى أشاركهم؛ فلم أُخيِّب ظنهم. وكنتُ قد نشرتُ من قبلُ على الفيسبوك بعض ما يَسَّخَرُ مُتنبِّئًا لمصر وغيرها أن يُلِمَّ بها ما أَلَمَّ بتُونُسَ حتى يُفضيَ الأمرُ بحُكّامِها إلى أن يجتمعوا في مدينة جُدَّة، ويُهيِّئ بعضهم لبعض عمله ومقامه! وأغريتُ الشباب بإدراك الأمر من أوله قبل فوات الأوان، وعاتَبَنِي بعضُ أبنائي على القعود عنهم بمكتبي؛ فأَعْتَبْتُهُ، وازدهر بنا جميعا ميدانُ التحرير وميدانُ الفيسبوك كلاهما معا؛ فما يَصُوتُ في أحدِهما صَوْتٌ إلا سُمِعَ في الآخر، حتى احتفَلْنا بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين!

وفي أثناء ذلك كله توالتْ عليّ أخبارُ انبهار بعض المحَكّمين بأعمالي، حتى ذَكَرَ لي بعضُ مُبلّغيها أنه يرى التوفيق كما يراني؛ فاستبشرتُ بذلك، وحَمَلْتُه مِنْ حُسْنِ الفأل على وَحْدة المصير.

أغلقَتِ الجامعاتُ المصريةُ أبوابَها ما أغلقَتْها، ثم فَتَحَتْها، فثار أساتذتُها ثم طلابها ثم موظفوها على قادتها الذين انْتَجَبَتْهُم الشرطة في سِرِّها وربَّتْهُم على عينها فأْتَمَرُوا بأمرها وانتهوا بنهيها فضَلُّوا وأَضَلُّوا، وإذا بي في مَعْمَعَةِ الثُّوّار تفكيرا وتعبيرا، أُبادِرُ التغيير، وأُغَادِر التَّرقية!

بِلَأْيٍ ما أَبْلَغَتْني لجنةُ الترقية أنَّ المحَكَّمين استجادوا أكثرَ أعمالي، ولكنها اعتذرتْ برَداءة بعضها عن اضطرارها إلى مُطالبتي ببحثٍ آخر أو بحثين في غير مجال التحليل النصي العروضي الذي افتتنتُ به، وإذا على الإنترنت خبرٌ رَسْمِيٌّ مُفصَّل عن أنني تقدمتُ للترقي إلى درجة أستاذ، ولكنَّ اللجنةَ رفضت ترقيتي!



٣٨ نَدْوَةُ الْعَرُوضِيِّينَ

انصرفت إلى بعض ما اجتمع لي على الزمان من مئات المسائل العلمية الجديرة بالبحث، أفتش من غير مجال التحليل النصي العروضي عما لا يُؤْذِي لجنة الترقية بَحْثُهُ، ولكنني وقد كَلَّفَني قسم النحو والصرف والعروض تدريس مقرر "قاعة بحث ١" لطلاب دبلوم دار العلوم، جعلت مجال أبحاثهم التطبيقية واحدا لا ثاني له، هو "خصائص التراكيب العروضية بين القرآن الكريم والحديث الشريف"!

تَوجّس الطلاب قليلا، فسألتهم: ألم تجدوا من بعض عبارات الآيات والأحاديث ما يَتَخَرَّج في علم عروض الشعر العربي أو يكاد؟ قالوا: بلى. قلت: فكيف وقد نفى الحق -سبحانه، وتعالى!- عن كلامه أن يكون شعرا وعن رسوله -صلى الله عليه، وسلم!- أن يكون شاعرا؟ أم كيف وقد استقلَّ بالمسألة بعضُ المستشرقين الطعّانين المُفْترين يفعلون بها ما يشاؤون، ألستم أحق بها وأهلها؟

نشط الطلاب للمسألة حتى اهتدى أحدُ نجبائهم إلى أن للدكتور سالم عياد من جامعة عين شمس، وَلَعًا بها وشُغْلًا طويلا؛ فدعوتُه للمحاضرة فيها بكليتنا، وجعلتُها ندوة عامة -ولكنها مقررة على طلاب الدبلوم- وشاركت الدكتور سالم عياد بالتقديم والتعليق ومساعدة الحاضرين على الفهم والسؤال وكان فيهم بعض صَحفيّي جريدة الشروق الشعراء، وبمساعدته على الجواب؛ فكانت ندوة نَديّة، سجلها بعض نجباء تلامذتي، وفَرَّغَها؛ فنشرتُها باسمه على الإنترنت؛ فَرَوِيَ بها ظامئون إليها متلهفون من قديم عليها.

وبِذِكْرِ هذه الندوة النديّة أذكر أَنْدَى منها ندوةَ مكانة ثقافتنا من خلال رسالة محمود محمد شاكر أستاذنا أستاذ الدنيا في الطريق إلى ثقافتنا، التي كانت قبلها بثلاث سنوات، وعُدّت من أفضل ما حَظِيَتْ به كلية دار العلوم من ندوات، وشارك فيها الدكتور محمود الربيعي، والدكتور عبد المنعم تليمة، والدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، والأستاذ عبد الرحمن شاكر، والدكتور فهر محمود محمد شاكر -ولولا نسيان الدكتور فهر لشارك فيها كذلك الدكتور إبراهيم عوض الحبر الجليل المجاهد- وحَضَرَتْها أمُّ فهر نفسُها وشَعْبٌ من مثقفي الكلية والجامعة ومصر والوطن العربي والإسلامي، ورَسَخَتْ لنا بها في أذهانهم صورة بديعة رفيعة. ولم أقابل أحدا من المشاركين فيها أو الحاضرين، إلا ذكر دهشته لها أو إعجابه بها!

لقد رأيتُ حينئذ أن أعرِضَ الرسالة كلَّها قبل أن أقدم المشاركين وكنت على التقديم والإدارة، فاستفدت من أفكار الدكتور سعد مصلوح في نقدها، وذهبتُ في الرسالة من أولها إلى آخرها أَصطفي أحسن ما يُمثّل كل فكرة وأَعْرِضه، فما

انتهيتُ إلا وقد قيل كل شيء، فانطلق منه المشاركون إلى ما لم يخطر لهم ببال. وكان بعضُ نُجَباء تلامذتي قد سَجَّلها وفرغها، فنشرتها باسمه على الإنترنت، وإذا هي مطبوعة بين أيدي طلاب العلم يتداولونها كما يتداولون الرسالة، ويتمنون أنْ لو فُعِل بغيرها مثلُ ما فُعِل بها!



٣٩ تَكْرِيمُ الْفَائِزِينَ

تقدمتُ للترقي إلى درجة أستاذ مرة أخرى بمقاليّ:
"صيغة فِعْل بمعنى مَفْعول اسم مصدر"، و"نحت الأفعال بين صيغتَيْ فَعَّلَ وفَعْلَلَ"، وهما ظاهرهما الصرف وباطنهما الطرب؛ وهل الصرف غير وجه من التطريب اللغوي العربي الأصيل!

ثم استغرقتني طوائف الانتخابات المختلفة التي لم يجتمع على المصريين مثلُها قَطُّ ولا نَشِطوا لبعضها، حتى دُعِيتُ إلى لجنة الترقية، وعرفت أن لجنة تحكيم مقالي قد استجادتهما

كليهما جميعا، فعرضتُ على أعضاء لجنة الترقية مقالِيَ الأخير تفاؤلا بأنه الذي دُعِيتُ عنده، فصَرَفَهُمُ الرضا عنه إلى شجون أخرى يعرفونها من أحوالي، حتى ذَكَرَ بعضهم أنه يحبني إلا علاقتي بالأستاذ شاكر! فقلت له: قد قال لي مرة أحد أساتذتي هَيّا قد كبرت فاخلع عنك عباءة الأستاذ شاكر - فقطع عليّ عضو اللجنة صائحًا: أرأيت- فقلت له: كيف ولا أُساوي حصاةً يَطَؤُها محمود محمد شاكر بقدمه! فصاح عضو لجنة آخر: يا ساتر! ليه يعني! واشتفيت، واكتفيت!

تَدَرَّجَتْ أوراق أستاذيتي في مدارج قبولها الرسمي من غير أن يعبأ بإعلان قبولها مَنْ عَبَأَ بإعلان رفضها، حتى بَلَغَتْ غايَتَها، وإذا الدكتور محمد مرسي -عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ!- يفوز برئاسة مصر، فيأبى شَعْبُ الإصلاحيّين بكليتنا إلا أن يحتفل بنا جميعا معا، أستاذا ورئيسا!

وقفتُ في ملأ الحاضرين أَقُصُّ طَرَفًا من رحلتي هذه إلى الأستاذية، ثم أعلنت عليهم أنني أتمنى أَنْ لَوْ كانت بيدي الآن شهادةُ الأستاذية لِأَضَعَها تحت قدمي، رفعًا لمقام طلب

العلم على مقام طلب الترقية! فغضب لكلمتي هذه عندئذ بعضُ الحاضرين، وظنني أَرْبَأُ بنفسي عن مساواة مَنْ حَصَلَ على الأستاذية مِمَّن لا يستحقُّها. ثم سخر منها بعدئذ بعضُ من لم يحضرها، ورآني أُهينُ المحتفلين. ولا شيءَ فيها مما ظننا، غير ما ذكرتُ من إجلال مقام طلب العلم الذي هان علينا في مقام طلب الترقية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثُمَّ "الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ"؛

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ!